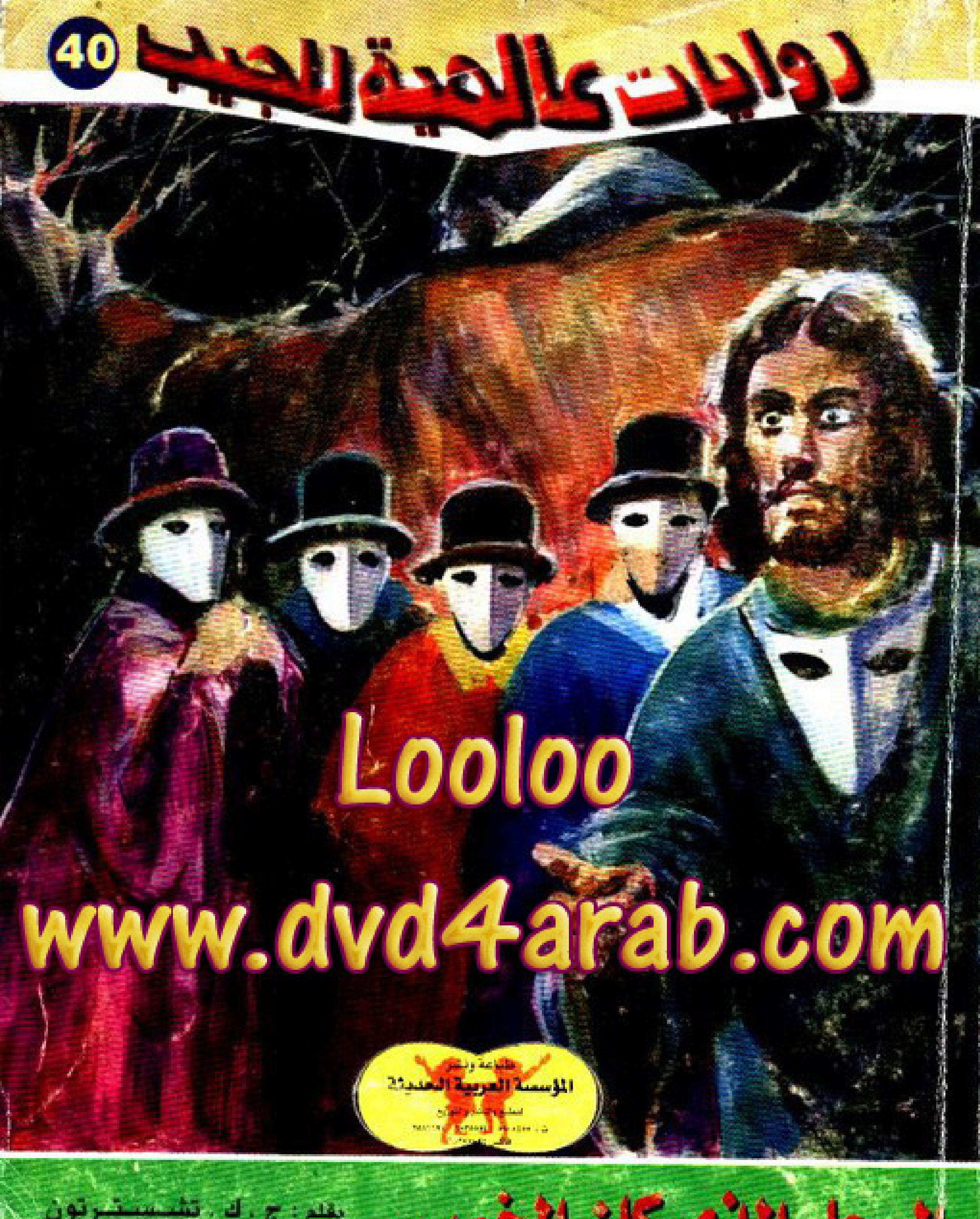


الرجل الذى كان الخميس

بقلم : ج . ك . تشسترتون
ترجمة : د. احمد خالد توفيق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف





(جلبيرت كيث تشسترتون)

كاتب إنجليزى موهوب ولد فى لندن عام 1874 . كتب فى جميع ألوان الأدب ، وكانت آراؤه الغريبة الخشنة - فى بداية حياته - مصدر جذب لكتاب متمردين على غرار (برنارد شو) و(ويلز) .

كتب سيرًا بالغة الأهمية ، كما كتب قصصًا بوليسية شهيرة جدًّا ، بطلها (الأب براون) وهو قس كاثوليكى يملك مواهب التحرى الجنائى ، وقد قدمتها الإذاعة هناك مرارًا ، ولعل أكثر قراء الإنجليزية لايعرفونه إلا من خلال هذه القصص المسلية . لكن أشهر ما كتب رواية (نابليون نوتنج هيل - 1904) وهى من نوعية الخيال المستقبلى ، ورواية (الرجل الذى كان الخميس - 1908) وهى القصة التى نقدمها لك اليوم .

كانت آراؤه السياسية فريدة ، وابتدع مذهبًا عجيبًا هو أقرب إلى الاشتراكية ، أطلق عليه اسم (التوزيعية) Distributionism على أساسه يجب أن يملك كل إنسان ثلاثة فدادين وبقرة ! ويقال إن مقالة واحدة له حركت مشاعر غاندى وجعلته يعمل جاهدًا من أجل استقلال الهند . هاجم حرب البوير التى كانت كل بريطانيا تؤيدها غير مبال بصدامه مع الرأى العام ،وكتب كتابه (الإيوجنيا وشرور أخرى) يهاجم (الإيوجنيا) (وهى المعادل القديم للاستنساخ بهدف خلق جنس أرقى وأفضل) ، وكان هذا فى وقت آمن فيه الجميع بأن مستقبل البشرية يكمن فى الإيوجينيا ، حتى كادت تغدو دينًا جديدًا . وكما اشتهر فى البداية بتمرده ؛ اشتهر فى أواخر أيامه بالتحفظ والدفاع عن الدين والعقيدة الكاثوليكية . وقد كتب فى الدين كثيرًا ومن أشهر كتب هذه الفترة (الإنسان الخالد) و(المهرطقون) .

وتوفى (تشسترتون) عام 1936 بعدما نشر فى حياته 69 كتابًا ما زال أكثرها مقروءًا وعظيم الشعبية حتى اليوم .

من أهم أعمال تشسترتون :

- المهرطقون 1905
- ما الخطأ فى العالم ؟ 1910
- القديس توما الإكوينى 1933
- خرافة الطلاق 1920
- طهر الأب براون 1911
- عراف الكلب 1927
- الرجل الذى كان الخميس 1908
- كيف وجدت السوبرمان 1909
- الرجل الذى عرف أكثر من اللازم 1922
- للعشاق فقط 1911

الفصل الأول

شاعرا حديقة الزعفران

كانت ضاحية حديقة الزعفران تمتد غربى (لندن)، حمراء كسحابة ساعة الغروب. كانت مبنية من قرميد لامع، خرجت من عبقرية مهندس معمار مزج عمله بشىء من الفن. وكان الناس يصفونها بأنها مركز للفنون برغم أنه ما من عمل فنى خرج منها قط.. لكن ما من أحد جادل فى أنها مكان مبهج خلاب. لم يكن المكان مبهجًا فقط بل كان مكتمل الروعة، وإن كان سكانه ليسوا فنانين كما يزعمون، فإن المكان كله يبوح بالفن.

مثلاً هذا الشاب ذو الشعر المحمر والوجه المتهكم، لم يكن شاعرًا لكنه كان قصيدة فى حد ذاتها.. وهذا الشيخ ذو اللحية البيضاء الذى يكذب بوقار، لم يكن

فيلسوفًا لكنه كان يلهم الآخرين بالفلسفة.. و.. العالم المدعى ذو العنق الطويل الرفيع، لم يكتشف شيئًا جديدًا فى علم الأحياء، لكن أى شىء يمكن أن يكتشفه أفضل منه هو؟ هكذا يجب أن ننظر للمكان ليس كورشة عمل للفنانين، ولكنِ كعمل فنى متكامل. وكان هذا التأثير يتضح بالذات ليلاً حين تتألق الأسطح بالأضواء كأنها سحابة مارقة، وتضاء المصابيح الصينية على الدور كأنها فاكهة خيالية. بل كان هذا التأثير يتضح أكثر حين يلعب الشاعر ذو الشعر الضارب إلى الحمرة دور البطولة..

كنت تسمع صوته الوعظى يتكلم مع الرجال وبخاصة النساء. وكانت نساء هذا المكان نموذجًا للطراز التحررى الذى يجاهد من أجل التحرر من سطوة الرجال، لكنهن كن يعطين للرجال خدمة لاتمنحه إياها أية امرأة فى العالم: كن ينصتن له حين يتكلم. وكان مستر (لوشيان جريجورى) - الشاعر ذو الشعر الضارب إلى الحمرة - بحق رجلاً يستأهل أن تصغى إليه، حتى لو كنت ستضحك منه فى النهاية. كان

مظهره الغريب لافتًا للنظر بحق ؛ فشعره البنى المفروق من المنتصف كالنساء ، ينساب فى خصلات مجعدة كعذراء من عصر ما قبل رافاييل . بينما ذقنه تبرز للأمام فى تعبير يوحى بالازدراء . كان يبدو مزيجًا من ملاك وقرد معًا ..

كانت هذه الليلة بالذات تمتاز بغرابة غروبها ، الذى بدا كأنه نهاية العالم . كل السماء مكسوة بريش أحمر .. ريش يوشك أن يلمس وجهك ، ويمتزج امتزاجًا لا يصدق بالبنفسجى والقرمزى والأزرق ، جمال لا يمكن أن تصدقه . والغريب أنه بدا دانيًا جدًا ، حتى لتشعر بأن السماء نفسها أقل حجمًا من طبيعتها .

قلت : إن هناك من سيتذكرون هذه الليلة فقط لغرابة سمائها ، ولكن آخرين سيتذكرونها لأنها شهدت مجىء الشاعر الثانى إلى حديقة الزعفران . لقد كان نو الشعر المحمر وحيدًا حتى ظهر الشاعر الثانى الذى يطلق على نفسه اسم (جابرييل سايم) . وقد أثبت حضوره بالجدال

مع الشاعر الأول (جريجورى) حول طبيعة الشعر . فقد وصف نفسه بأنه شاعر القوانين .. شاعر الاحترام ..

قال (جريجورى) بأسلوبه الغنائى :

ـ « ربما فى ليلة كهذه زاخرة بالألوان الوحشية والغيوم ، تأتى لنا أعجوبة اسمها الشاعر المحترم .. تقول إنك شاعر القوانين ، وأنا أرى تناقضًا مخيفًا فى هذا ، حتى إننى لا أفهم لماذا لم تمتلئ السماء بالشهب تحية لقدومك .. إن الفنان يشبه الثائر الفوضوى ، والفوضوى يشبه الفنان(*) .. من يقذف قنبلة هو فنان لأنه يفضل لحظة عظيمة على أى شىء آخر .. إنه يفضل لحظة من صوت الرعد أو وميض البرق على وجوه مجموعة من رجال الشرطة لا يمتازون بشىء .. الشاعر الحق يرفض كل القوانين ويتحدى كل الأنظمة ، ولو لم يفعل فإن أكثر الأشياء شاعرية فى (لندن) هو مترو الأنفاق ..

(★) فى زمن القصة كانت الحركة الفوضوية ANARCHISM فى ذروتها ، وهى حركة بدأها الفيلسوف الفرنسى (برودو) ، وتقضى برفض كل أنواع الحكومات وتدعو إلى الفردية بكل صورها . كان من أقطاب الفوضوية بعض المخربين مثل (كروبوتكين) و(بوكانين) السوفيتيين . وقد ساعدا على جعل لفظة (فوضوى) مقترنة بالإرهاب ..

« هل تعرف لماذا يبدو الموظفون فى محطة القطار بهذا الاكتئاب ؟ لأنهم يعرفون أنه لاتغيير فى حياتهم .. بعد (سلون) يصل القطار إلى (فكتوريا) .. لاشىء سوى (فكتوريا) .. كل شىء يسير بنظام .. كل شىء مضمون ورتيب .. ويا لفرحتهم لو فوجئوا أن محطتهم التالية هى (بيكر ستريت) !! »

ـ « أنت من يفتقر إلى الشاعرية .. إن الفوضى عمل ممل سخيف .. ليست المعجزة فى أن يصل القطار إلى مكان غير مقصود مثل (بيكر ستريت) أو حتى (بغداد) .. الشاعرية هى الإنسان الذى يسيطر على وحش كالقطار .. يقرر أن يتجه به إلى (فكتوريا) وينجح فى ذلك ! »

وأردف (سايم) فى حرارة :

ـ « دعنى أقل لك إنه فى كل مرة يصل فيها القطار للمحطة ، أشعر بأن الإنسان انتصر فى معركته ضد الفوضى .. وحين أسمع كمسارى القطار يصيح (فكتوريا) ، أشعر بأن هذا أكثر مما يعنيه .. أشعر بأن هذا بحق انتصار الإنسان .. »

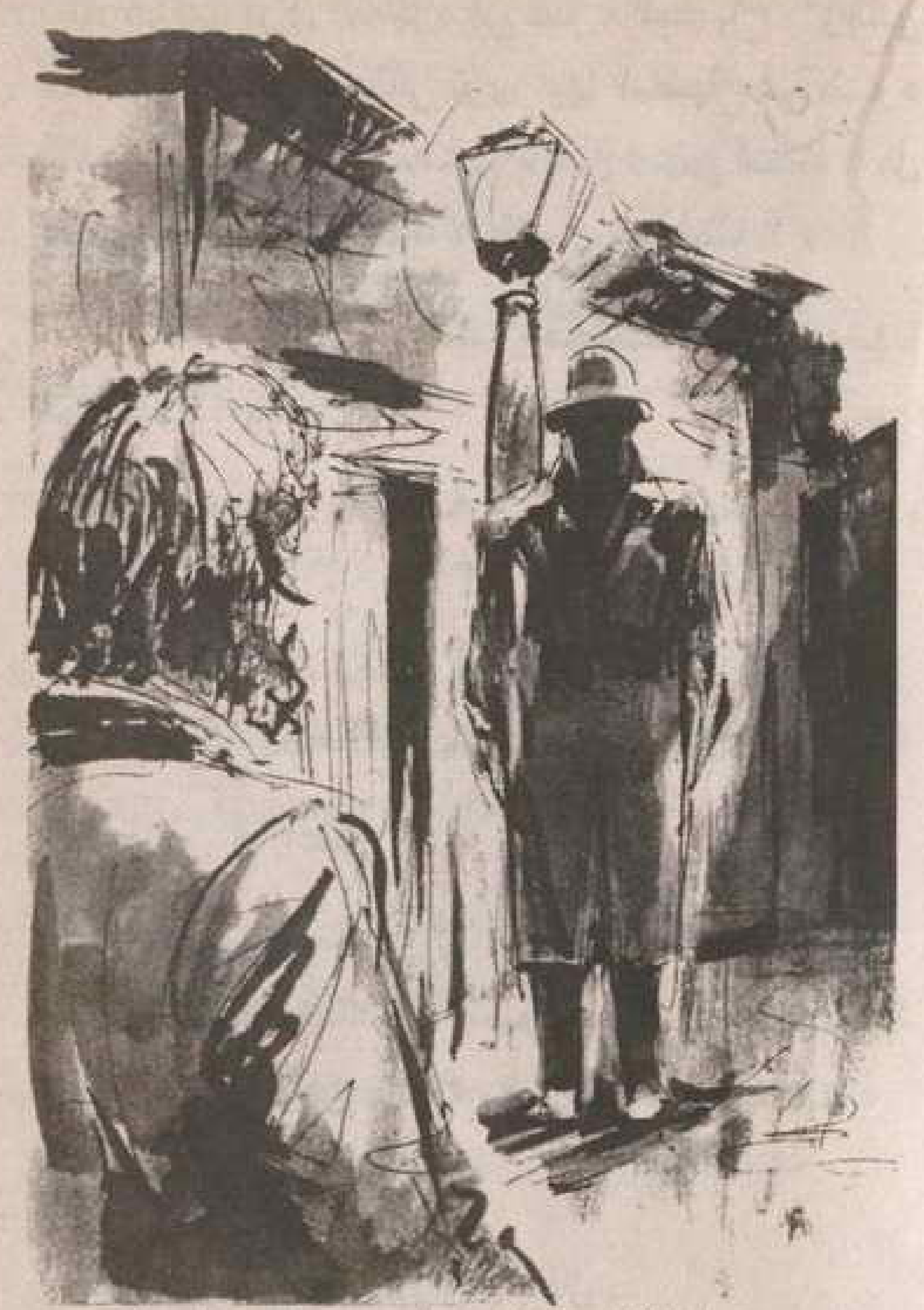
حرك (جريجورى) خصلات شعره المحمر وقال :

ـ « وحتى بعدها .. لايقنع الشاعر بالوصول إلى (فكتوريا) ، ولسوف يتساءل عن جدوى وصوله هناك .. الشاعر لايقنع بالتحليق فى السماء ذاتها .. الشاعر هو الثورة ذاتها .. »

ـ « وما الشاعرية فى أن تكون ثائرًا ؟ الثورة ودوار البحر يحدثان للإنسان ، لكن لأشنق لو عرفت أن فيهما شاعرية من أى نوع .. كلاهما قىء .. وإننى لأجد فى الهضم المنتظم شاعرية تفوق كل الزهور فى العالم .. الشاعرية الحقيقية هى ألا تمرض .. »

بدا لدى شقيقة (جريجورى) بعض اهتمام بكلمات وآراء هذا الضيف الجديد ، فمشت جواره إلى ركن فى الحديقة وهو يتكلم بحماسة عن النظام والقانون .. ويدافع بحرارة عن حججه ، وبعد قليل وجد نفسه يتحدث لا للفتاة بل لشعرها الأحمر الجميل ووجهها المستمتع ..

وأثار دهشته حين رفع عينه أن الجميع قد رحلوا من الحديقة من زمن ، فاعتذر لها وعاد لداره شاعرًا برأسه يتأرجح ثملا .. لم يكن لهذه الفتاة دور فى كل الأحداث المريعة التى ستقع فيما بعد ، ولم يرها قط حتى انتهت هذه القصة ، لكنها بشكل ما راحت تتردد فى ذهنه طيلة



وعند مصباح الشارع كان يقف شبح متصلب مثله مثل عمود الإضاءة ذاته .

مغامرته المجنونة التالية ، كما تتردد (موتيفة) الموسيقا طيلة الوقت ..

حين خرج (سايم) إلى الشارع الذى لاتنيره إلا النجوم ، وجد أنه خاوٍ .. وأدرك بشكل ما أن هذا الصمت حى وليس ميتًا . وعند مصباح الشارع كان يقف شبح متصلب مثله مثل عمود الإضاءة ذاته .. معطفه وقبعته أسودان ووجهه فى الظل .. لكن شيئًا فى مظهره كان يوحى بأنه الشاعر (جريجورى) ذاته .. له سمت قاتل أجير ينتظر عدوه بسيف فى يده ..

أتى (جريجورى) بنوع من التحية وقال :

- «كنت أنتظرك .. هل لى فى لحظة من الحديث معك ؟»

قال (سايم) فى دهشة واهنة :

- « بالطبع .. لكن عن ماذا ؟ »

أشار (جريجورى) للمصباح والعمود وقال :

- « عن هذا وذاك .. عن الفوضوية .. تأمل مدى غباء ورتابة هذا المصباح ، وتأمل جمال أوراق الشجرة العشوائية .. »

ـ « لكنك ترى الشجرة فى ضوء المصباح ، وإننى لأتساءل عن اللحظة التى ترى فيها المصباح فى ضوء الشجرة !! » ـ ثم أضاف ـ « لكن دعنى أسألك : هل تقف هنا فى الظلام فقط لاستكمال مناقشتنا ؟ »

ـ « كلا .. لم أقف لاستكمال محادثتنا .. بل لإنهائها إلى الأبد !! »

وقف (سايم) ينظر له عاجزًا عن فهم ما يريد ، بينما قال الشاعر :

ـ « الليلة أنت نجحت فى فعل شىء لم ينجح رجل ولا امرأة فى فعله قط .. استطعت أن تضايقنى .. »

ـ « إذن أنا اعتذر .. »

ـ « للأسف لايستطيع الاعتذار أن يرد لى كرامتى .. حتى لو تبارزنا وقتلك فلن ينسينى هذا الإهانة .. توجد طريقة واحدة أبرهن بها لك على أنك كنت مخطئًا .. »

ـ « مخطئًا فى ماذا ؟ »

اسود وجه (جريجورى) وقال :

ـ « أنت تعتقد أننى لا أعنى ما أقول ، وأننى غير مخلص فى فوضويتى .. تحسبنى غير جادٍ .. لكننى سأريك أننى جاد حقًا وأعنى ما أقول حقًا .. عليك أولاً أن تقسم إن كل ما سأخبرك به هذه الليلة سر .. سر سيظل فى أعماق روحك للأبد ، ولن تخبر به الشرطة مهما حدث .. والمقابل أننى أعدك بليلة ممتعة حقًا .. »

نزع (سايم) قبعته باحترام وقال :

ـ « عرضك أكثر بلاهة من أن أرفضه .. تقول إن الشاعر دائمًا فوضوى ، وأنا أختلف معك ، لكنى آمل أن الشاعر على الأقل يتمتع بروح رياضية .. أنا أعدك فماذا تريد أن تصارحنى به ؟ »

ـ « فلنستقل عربة أجرة ونر .. »

وصفر لعربة مارة ، وأعطى السائق عنوان حانة فى الجهة الغربية من النهر ..

* * *

الفصل الثانى

سر (جابرييل سايم)

فى الحانة سيئة الإضاءة ، جلس الرجلان على منضدة متسخة لها رجل مكسورة .. وطلب (جريجورى) معجون كبد الإوز بالدهن وعش الغراب (باتى دوفوا جراه) ، ولدهشة (سايم) ذهب الساقى ليحضر هذا الطلب .. رأى (جريجورى) دهشة (سايم) فقال له :

ـ « أعرف أن هناك تناقضًا بين جودة ما يقدمه هذا المطعم وبين مظهره الخارجى .. إن هذا يعود لتواضعنا ، فنحن أكثر أهل الأرض تواضعًا .. »

ـ « ومن أنتم ؟ »

ـ « الفوضويون الجادون فى فوضويتهم .. أولئك الذين لاتؤمن أنت بوجودهم .. بالمناسبة .. لو شعرت

بأن المائدة تتحرك قليلاً فلا تعزُ هذا إلى إفراطك فى الشراب .. لا أريد أن تتهم ذاتك بتهمة باطلة »

فما كاد يقول هذا حتى بدأ (سايم) بالفعل يشعر بأن المائدة تتحرك قليلاً .. قال له (جريجورى) :

ـ « لاتقلق .. هذا نوع من القلاووظ »

ـ « آه ! نوع من القلاووظ .. ما أبسط الأمر !! »

فى اللحظة التالية واصلت المائدة الدوران ثم غاصت فى الأرض بمن عليها ..

نهض (جريجورى) واقتاد ضيفه إلى باب يفضى إلى ممر مسقوف .. فى نهايته كان ضوء أحمر ينبعث من مصباح قرمزى عملاق يوشك أن يكون حجمه كالمدفأة ..

دق على باب معدنى خمس مرات فجاءه صوت من الداخل يسأل عن شخصه ، فقال :

ـ « أنا مستر (جوزيف تشامبرلين) . »

انفتح الباب فدخلا ، وكان المدخل مبطنًا بما يشبه شبكة معدنية ، سرعان ما تبين (سايم) أنها مجموعة

متقاطعة من البنـادق والمسدسات ثبتت إلى الجدران . بعد مرور فى عدة ممرات مماثلة ، بلغا غرفة معدنيـة غريبة تشبه الكرة ، لكن كانت بها مناضد عدة توحـى بأنها قاعة درس . لم تكن هناك بنادق فى هذه الغرفـة ، لكن على الجدران كانت أشياء غريبة كأنها بيض طيور معدنية . كانت قنابل ..

قال (جريجورى) :

ـ « حاول أن تكون على راحتك هنا ياسيدى .. حقًا لا توجد أسباب تفسر لماذا أريك هذا كله .. إنه أمـر لـم أخطط له مثله مثل الوقوع فى الحب .. والآن أمـا زلت تشعر بأننى فوضوى غير صادق فى فوضويتى ؟ »

ـ « مازلت لا أفهم معنى هذا كله .. »

ـ « ليس هدفنا هنا تحدى القانون والشرطة .. بل نحاول ما هو أكثر عمقًا وتعقيدًا .. لقد تحدث فلاسفة الثورة الفرنسية السخفاء عن حقوق الإنسان .. نحن نكره الحقوق ونكره الأخطاء .. لقد ألغينا لفظتى صواب وخطأ » .

ـ ليتكم تلغون لفظتى اليمين واليسار كذلك .. ولكن دعنى أسألك بالمناسبة : مع كل هذا الحذر وكلمات السر ، أراك تجهر بآرائك الفوضوية جهرًا أمام النساء .. »

ـ « دعنى أحك لك قصتى .. فى الأيام الأولى لاعتناقى الفوضوية ، كان على أن أتنكر وسط المجتمع .. تنكرت كأسقف لكن سرى افتضح سريعًا .. بعد هذا جربت أن أبدو كمليونير ، لكننى كنت أدافع عن الرأسمالية بحماسة وذكاء أقنعا كل من حولى أننى رجل فقير فـى الحقيقة !! وحين جربت أن أكون رجلاً عسكريًا رحـت أصيح طيلة الوقت : دم .. دم ! ثم أدركت أن العسكريين لايتصرفون هكذا .. قصدت رئيس مجلس الفوضويين ، وهو أعظم رجل فى أوروبا بلا مراء .. »

ـ « ما اسمه ؟ »

ـ «لن تعرفه .. لكنه رجل عبقرى بالفعل ، ولو جلست معه عشر دقائق ، لشعرت بأن (قيصر) و(نابليون) هم مجرد أطفال بالنسبة له .. لقد سألته عن أنسب تنكر أذوب به وسط الناس ، فنظر لى وقال : تريد تنكرًا يخدع

الجميع ، ولا يشتبه أحد فى أن صاحبه يحمل قنبلة ؟ تنكر كفوضوى يا أحمق !! وقتها لن يحسبك أحد قادرًا على عمل شىء .. وهكذا لم أنس نصيحته .. طيلة الليل أتحدث عن القنابل والموت أمام هاته السيدات ، لكنهن لايصدقن حرفًا مما أقول .. إن الزعيم بالغ الحكمة ، ونحن نطلق عليه (الأحد) .. كما ترى هناك سبعة أعضاء للمجلس الفوضوى ، يحمل كل منهم اسم يوم من الأسبوع .. وبالصدفة سيكون علينا الليلة - فى هذا المكان بالذات - انتخاب بديل للعضو (الخميس) لأنه توفى فجأة .. ويهمنى هنا أن أصارحك بسر لا يجب أن يعلمه أحد من القادمين بعد عشر دقائق : أنا من سيكون الخميس .. »

- « ياله من شرف يا صديقى ! »

أشار (جريجورى) إلى منضدة عليها عباءة وسيف ومسدس .. وقال وهو يفرك يديه :

- « كل ما على هو أن ألبس هذه الأشياء ، وأتجه إلى الكهف المجاور الذى يطل على النهر ، ثم أستقل

قاربًا بخاريًا .. وبعدها .. المتعة الوحشية لأن أكون أنا الخميس ! »

قال (سايم) فى حيرة :

- « لا أدرى حقًا لماذا أميل لك يا (جريجورى) .. ربما لأنك جحش أحمق ، وربما لأننى لا أريد إفساد هذه الأمسية الشائقة .. لكننى أريد منك وعدًا .. أنا وعدتك ألا أبوح بسرك للشرطة وعليك أن تعدنى بألا تصدر منك كلمة للفوضويين بخصوص سرى »

- « سر ؟ هل لديك سر ؟ »

- « نعم .. وأرجو أن تعدنى بألا تكشفه .. »

- « أعدك ، ولكن تكلم سريعًا فقد دنا موعد وصول أولهم .. »

مد (سايم) يده فى جيبه فى نفس اللحظة التى دوت فيها خمس دقات على الباب ، تعلن وصول أول المجتمعين الليلة .. وقال :

ـ « لا أدرى هل يسمح الوقت بالكلام أم لا .. لكن فكرتك عن التنكر فى ثوب شاعر فوضوى لإخفاء أنك فوضوى ، لم تكن وليدة أفكار الرئيس فقط .. لقد فكرنا فى الشىء ذاته فى (سكوتلانديارد) !! »

ـ « ماذا تقول ؟ »

ـ « نعم .. أنا مخبر فى الشرطة .. لكن يبدو أن أصدقاءك قد جاءوا الآن .. »

راح اسم (جوزيف تشامبرلين) يتردد ، وسرعان مادخل حشد من الـ (جوزيف تشامبرلينات) إلى الردهة ..

★ ★ ★

الفصل الثالث

الرجل الذى كان الخميس

امتدت يد (جريجورى) إلى المسدس ، وصوبه إلى رأس (سايم) لكن هذا لم يهتز .. وقال فى لامبالاة :

ـ « لاتكن طفلاً .. ألاتفهم أننا فى نفس القارب ، وأن كلاً منا قد وضع الآخر فى وضع (كش مات) ؟ أنا لا أستطيع إبلاغ الشرطة بأنك فوضوى ، وأنت لن تستطيع إبلاغ الفوضويين بأننى شرطى .. إنها مباراة بين عقلين .. أنا شرطى محروم من معونة الشرطة ، وأنت فوضوى محروم من معونة الفوضويين .. لكنك فى وضع أفضل منى .. فأنت لست محاطًا برجال الشرطة المتشككين .. »

وضع (جريجورى) المسدس بعد تردد ، بينما دخل الرجال ..

ماكان يستطيع أن يخون (سايم) الآن .. ربما للشرف ،

وربما لأنه لو خانه واستطاع (سايم) بشكل ما أن يفر .. سيكون (سايم) وقتها (سايم) جديدًا متحررًا من أى قسم سابق قطعه .. سيدخل أقرب نقطة شرطة ويحكى كل شىء .. دع (سايم) يرحل بسلام إذن وجازف بهذا ..

قال للرجال :

ـ « حان وقت البدء فالقارب البخارى ينتظر الآن حتمًا .. »

اعتلى رجل قصير القامة مقعد الرئيس ، على حين اتخذ الرجال مقاعدهم كأنما فى محاضرة .. قال الرجل فى حدة :

ـ « يا رفاق .. إن اجتماعنا الليلة عظيم الأهمية .. فكما تعرفون إن فرعنا هو المكلف بانتخاب أيام الخميس للمجلس ، وكان الخميس السابق رجلاً عظيم الشأن ، نذكر له تفجير جسر (برايتون) ، الذى كان ممكنًا أن يقتل كل إنسان هناك لو كان حظنا أفضل .. وقد مات الفقيد بسبب مبادئه وهو يشرب مزيجًا من الطبشور

والجير الحى ، بديلاً عن اللبن الذى كان يعتبره مشروبًا همجيًا .. من العسير أن نحكى كل مزايا الرجل ، لكن الأصعب أن نجد له بديلاً .. وسيكون عليكم أن تتقدموا بترشيحاتكم لأصلح رجل كى يكون الخميس .. »

نهض رجل عجوز نحيل ، وقال :

ـ « أطالب بترشيح الرفيق (جريجورى) ليكون هو الخميس .. »

صفق الجميع ، ونهض (جريجورى) شاحب الوجه ليقول كلمة شكر بهذه المناسبة .. كانت مهمته الآن أن يقنع مخبر الشرطة الجالس معهم أن المنظمة ليست شيئًا جديًا خطيرًا .. لقد كان المخبر يؤمن أن الفوضويين لايعنون ما يقولونه حقًا ، فهل يستطيع (جريجورى) الآن أن يقنعه بهذا من جديد ؟ كان مؤمنًا بقدرته الخارقة على التلاعب بالألفاظ وجعلها تحتمل أكثر من تفسير ..

ـ « يا رفاق .. لن أقول هنا شيئًا لاتعرفونه جميعًا ..

إن الناس الذين يتهمون الفوضوية بشتى التهم ، يقصدون كل مكان إلا الفوضويين أنفسهم كى يستقوا معلوماتهم .. إن رجل الشارع الذى يسمع أننا أوبئة تمشى على قدمين ، لم يسمع دفاعنا عن أنفسنا قط .. وها نحن أولاء نجتمع هنا تحت الأرض كما كان المسيحيون الأوائل يجتمعون فى السراديب .. ولو فرضنا لمجرد الفرض أن هنا رجلاً ليس من بيننا .. فإننى أقول له : ترى ما السمعة والإشاعات التى كان الرومان وقتها يطلقونها على هؤلاء المسيحيين ؟ إننا ودعاء كهؤلاء تمامًا .. »

هنا نهض رجل يلبس سترة جلدية ، وبحدة قال :

- « أنا لست وديعًا .. »

- « الرفيق (ويذرسبون) يزعم أنه ليس وديعًا .. حسن .. أنا أعترف أن لهجته حادة ومظهره خشن .. لكن لابد لقلب صديق مثل قلبى كى يحكم على هذا الرجل .. إن فيه وداعة بالغة كامنة لايشعر بها هو نفسه .. إن فينا بساطة ورقة لاتوصفان .. انظروا لى واحكموا بأنفسكم ! لقد زعم الرومان أن المسيحيين الأوائل كانوا يأكلون لحم الموتى .. ونحن لا نأكل لحم الموتى .. »

- « يا للعار !! لماذا لا نفعل ذلك ؟ »

- « أقول إننا نحب المجتمع .. »

- « فليسقط الحب !! »

- « أقول إننا نحب بعضنا ، ولسوف نعمل جاهدين على أن نوصل رسالتنا للناس .. »

أخيرًا جلس (جريجورى) منهكًا ، وقد ساد جو من الصمت وخيبة الأمل ، وبدا أنه ما من واحد بعد هذه الخطبة يرغب فى انتخابه ليكون الخميس .. كاد رئيس الجلسة يتكلم ، لكن (سايم) وثب على ساقيه وصاح :

- « سيدى .. أنا أعترض على ترشيح الرفيق »

قالها بلهجة هادئة ، ثم بدأ يمارس فن الخطابة كما ينبغى ، إذ غير نبرة صوته لتجلجل فى القاعة كالرعد :

- « يا رفاق !! هل حقًا وصلنا لهذا ؟ أترانا نعيش تحت الأرض من أجل هذا ؟ أترانا علقنا كل هذه الذخائر واخترنا كل هذه القنابل ، حتى لايجىء أحد ويسمع الرفيق

جريجورى يقول : فلنكن خيرين .. الأمانة هى خير سياسة .. الصدق منج ؟ هذه مواعظ جديرة بمدارس الأحد .. جديرة بالوعاظ .. لكنى لست واعظاً (تصفيق تصفيق) .. أنا عدو المجتمع لأن المجتمع هو عدو البشرية .. يقول الرفيق إننا لسنا قتلة وأنا أوافقه على هذا .. نحن لسنا قتلة بل نحن جلادون !! لهذا أقول إن الرجل الذى يحمل أخلاق قديس لا يصلح بالتأكيد ليكون الخميس .. »

جلس (جريجورى) يصغى لهذا كله ووجهه متصلب، كأنما لا يصدق ما يسمع ..

واصل (سايم) الكلام :

ـ « أنا (سايم) أقف أمام (جريجورى) فى الترشيح، وأقول إننى لست رجلاً على الإطلاق .. أنا سبب !! وإننى أطالبكم بالاختيار بينى وبينه كما تختارون بين نوعين من المسدسات على الجدار .. »

اختفت مقاطعه الأخيرة وراء سد من التصفيق، والتمعت الوحشية فى العيون طلبًا للمزيد .. هنا نهض (جريجورى) والزبد يتساقط من شدقيه، وصاح :

ـ « كفى أيها المجنون !! لقد تجاوزت الحد !! »

صاح (سايم) بصوت أعلى :

ـ « أنا لا أريد دخول المجلس لأطالب بدفع تهمة القتل عنا .. أنا أريد أن أستحق هذه التهمة !! أريد أن أثبت للقس والقاضى ورجل البرلمان البدين الذين يتهموننا بأننا مجرمون نخرب المجتمع .. أريد أن أثبت لهؤلاء أنهم صادقون فى نبوءتهم !! »

هنا فقط نهض رئيس الجلسة وصاح وسط التصفيق :

ـ « أنا أرى أن أجدر شخص لمنصب الخميس هو الرفيق (سايم) .. »

صاح (جريجورى) فى وهن :

ـ « لا تفعلوا ! أنتم لا تفهمون !! »

ثم بلهجة متوسلة صاح :

ـ « أرجوكم .. لا أستطيع أن أقول السبب لكن لا تنتخبوا هذا الرجل .. أنا آمركم .. خذوها على هذا المحمل ،

فإن لم يرق لكم فأنا أتوسل إليكم .. سأجثو على ركبتى وأرجوكم ألا تفعلوا .. سأكون خادمكم الطيع .. عبدكم الرقيق .. لكن صدقونى .. »

نهض رجل نحيل فارع القامة من مؤخرة الجلوس، وقال بلهجة أمريكية :

ـ « أنا راغب فى دخول الترشيح .. »

جرى الانتخاب .. فلما ذكر اسم (سايم) ارتفعت الأيدى كأنها غابة .. وسرعان ما صار المستر (سايم) هو يوم الخميس فى مجلس الفوضويين المركزى .. وقال له رئيس الجلسة :

ـ « هلم لتركب القارب .. »

ضم (سايم) عباءته على جسده ومشى عبر ممر ضيق خلف الرجل .. كانت البحيرة صفحة من الفضة كأنما هى لوحة من لوحات المسرح ، وقد وقف فى ضوء القمر قارب بخارى صغير ..

وسرعان ما انساب القارب البخارى براكبه ..

★ ★ ★



ضم (سايم) عباءته على جسده ومشى عبر ممر ضيق خلف الرجل .

الفصل الرابع

حكاية المخبر

لم يكن (جابرييل سايم) مخبرًا تنكر فى ثوب شاعر ، بل كان شاعرًا اختار أن يعمل مخبرًا .. كان قد تضايق فى شبابه من حماقات من يزعمون أنفسهم ثوريين ، واتخذ موقفًا بالغ التحفظ .. كان ثائرًا على أشياء كثيرة ، ومن ضمن هذه الأشياء الثورة نفسها .. وقد رأى مرة ديناميتًا ينفجر جواره فى عملية إرهابية ، جعلته يمقت الفوضويين مقتًا بالغًا .. لم يعتبرهم كباقى المثقفين وباء يجب اجتثاثه ، بل اعتبرهم خطرًا داهمًا على الأمة كغزو من الصين ..

وعرف أن هناك قسمًا فى الشرطة يضم رجال الشرطة المثقفين ، وهؤلاء عملهم مراقبة الأفكار .. إنهم لايبحثون عن الجريمة بعد ارتكابها .. بل يبحثون عنها قبل ارتكابها

فى عقول المثقفين .. والفكرة التى تلح عليهم هى أن اللص العادى البائس لايهدم المجتمعات .. أما المفكر والفيلسوف فهو الذى يرتكب أشنع الجرائم طرًا .. أليست جرائم آل (ميديتشى) ماثلة للعيان ؟ ألايعرف الجميع فظائع أباطرة الرومان ؟

وهكذا كانت الشرطة تعتبر أشنع المجرمين هو الفيلسوف عديم الاحترام للقانون .. إن اللص العادى يحترم الملكية ويحاول أن ينقلها له بطريقة غير مشروعة ، وهو بهذا يحترم الأهواء البشرية ، أما الفيلسوف فيزدرى الملكية ويحاول أن يلغيها .. إن القتلة يحترمون الحياة البشرية حتى إنهم يحاولون سرقتها من ضحاياهم ، بينما الفيلسوف يزدرى الحياة كلها .. إن المجرم العادى يحترم قوانين الكون لكنه يحاول تجاوز العقبات بشكل غير مشروع ، بينما الفوضوى يدمر كل هذا ..

تطوع (سايم) للانضمام إلى هذا القسم فى الشرطة ، وأخذوه ليلقى القائد فى (سكوتلانديارد) .. كان القائد يجب أن يلقى رجاله فى غرفة معتمة الإضاءة لأن هذا

يساعده على التركيز .. وأثار رعب (سايم) كل هذا الظلام المحيط به فى الغرفة .. لم تكن تلك الظلمة المعتادة حيث تتبين حدود الأشياء بل بدا الأمر كأنما أصيب بالعمى فجأة ..

- « هل أنت المتطوع الجديد ؟ »

وبرغم أنه لم يكن هناك ضوء ، فإن (سايم) أدرك أن من يكلمه رجل هائل الجثة يدير ظهره له ..

- « أنت صرت معنا .. »

- « لكننى غير كفء يا سيدى .. »

- « إن لديك الرغبة وهذا كاف .. »

- « وهل هناك مهنة تكفى الرغبة كاختبارها الأخير ؟ »

- « نعم .. مهنة الشهيد ! إننى أقدمك للموت .. طاب يومك .. »

وهكذا تم تعيينه وخرج للعالم الخارجى ليمارس مهنته

الجديدة .. بعد ما تأنق وارتدى ثيابًا فاخرة مناسبة، وراح يبحث عن الجريمة فى مجتمعات (لندن) الراقية ..

وكما رأينا ؛ قادته مغامرته إلى أن يجد نفسه فى قارب بخارى ، فى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، متجهًا إلى حيث يلعب دوره الجديد كالخميس فى مجلس الفوضويين ..

وحين غادر القارب ، شعر بأنه لا يخطو فقط فوق أرض جديدة .. بل فوق كوكب جديد .. كان القمر وهاجًا قويًا حتى بدا له كأنما هو شمس أضعف .. لم يعط الانطباع بضوء قمر براق ، بل بضوء نهار غائم ..

كان القارب بطيئًا جدًا ، فما إن بلغ (وستمنستر) حتى بدأت أولى خيوط النهار .. واتجه القارب إلى مرسى قرب (شيرنج كروس) ..

خرج من القارب ومشى فوق المنحدر المبتل .. ووقف .. بينما أدار الرجلان القارب من جديد واختفيا .. لم يكونا قد نبسا ببنت شفة طيلة الرحلة ..

* * *

الفصل الخامس

وليمة الخوف

بدا السلم الحجرى فى البداية مهجورًا كهرم قديم .. لكن ما إن وصل لأعلى حتى تبين رجلاً ينحنى فوق حاجز الجسر يتأمل النهر .. كان يرتدى معطفًا أسود ويضع زهرة حمراء فى عروته .. دنا منه (سايم) أكثر فرأى أن وجهه مستطيل حاد يوحى بالثقافة ، ينتهى بلحية مدببة صغيرة بالضبط عند طرف الذقن ..

دنا (سايم) أكثر فأكثر .. وخطر له بالغريزة أن هذا هو الرجل المفترض منه أن يلقاه ، لكنه غير هذا الرأى حين وجد أن الرجل لم يتحرك ولم يتكلم . كان ثابتًا كتمثال من شمع ، ثابتًا أكثر مما هو طبيعى ..

مد (سايم) يده فى جيبه وأخرج الورقة التى تثبت أنه انتخب ، وقربها من الوجه الوسيم الحزين .. هنا

ابتسم الرجل وكانت ابتسامته صادمة ، لأنها حدثت فى جانب واحد فقط من وجهه .. هذا طبيعى فى أناس كثيرين ، لكن بالنسبة لأعصاب (سايم) المرهقة كان هذا يفوق التحمل . وبدأ الرجل يتكلم دون مقدمات كأنما يكلم صديقًا قديمًا :

ـ « لو مشينا إلى (ليستر سكوير) سنصل فى وقت الإفطار .. إن الأحد يصر على الفطور المبكر .. هل نمت ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « ولا أنا .. سنحاول الظفر ببعض النوم بعد الفطور .. »

كان ينطق المجاملات بلاحياة ، كأنما هى كلمات لاتمثل له أهمية .. وفهم (سايم) أن هذا ليس الأحد إنما هو سكرتيره .. اتجه الرجلان ليجلسا فى شرفة المطعم الذى يطل على الميدان ، والتى جلس فيها خمسة رجال متأنقين بشكل مبالغ فيه ـ كأنما هم فى حفل عرس ـ

يتبادلون النكات بصوت عال . هذا إذن هو ملتقى
مفجرى الديناميت البريطانيين ..

وفى الشرفة لاحظ (سايم) شيئًا غريبًا .. شيئًا كان
فى الواقع أكبر من أن يراه المرء بسهولة .. إنه ظهر
رجل جرم بالغ الطول والبدانة ، كأنه تمثال عملاق
نحت هناك . أذناه هائلتا الحجم ورأسه متضخم وكل
ما فيه يتجاوز المقاييس المعهودة ، حتى إن كل
شىء فى المطعم بدا قزمًا .. ولم يحتج (سايم)
للسؤال عما إذا كان هذا العملاق هو الرئيس الذى يهابه
الآخرون أم لا ، لأنه عرف ذلك بالسليقة .. ولم يكن
(سايم) بطبعه من الرجال الذين يخشون الخطر المادى ،
لكن التأثير النفسى كان يلعب معه أسوأ الأدوار . كأنه
يدنو من مركز قيادة جهنم ذاتها . دنا من الرجل فوجد
أن وجهه الجسيم يكبر أكثر فأكثر ، وأصابه ذعر طفولى
من أنه لو دنا أكثر فلن يكون حجم هذا الرجل ممكنًا .
تذكر كيف كان يخاف من تمثال (ممنون) فى المتحف
البريطانى ، لأنه كان وجها ضخمًا جدًا . لكنه حين جلس
وأعاد تأمل الأحد ، أدرك أن ملامحه مازالت بشرية .

كان هناك رجل آخر له ملامح سوفيتية يرتدى
ثيابًا أنيقة ، لكن تطل من ياقته البيضاء ملامح
غريبة جدًا ، فلو كان ما خرج من ياقته رأس كلب
أو قط ، لكان المشهد أقل غرابة . كان اسم الرجل
(جوجول) وهو بولندى ، لكنهم هنا يطلقون عليه
(الثلاثاء) . ويبدو أن الرئيس لاحظ هذه النظرة فقال
فى صوت عميق مطمئن :

- « إن صاحبنا (الثلاثاء) لايفهم الفكرة .. إنه يلبس
ثياب سيد مهذب ، لكن يبدو أن روحه أعظم من هذا ..
دائمًا ما يوحى مظهره بأنه متآمر .. ولو مشى على
يديه وركبتيه فى الشارع فلربما لن يلفت النظر إلى
هذا الحد »

بلهجة أجنبية كثيفة قال (جوجول) :

- « أنا لا أجيد التخفى .. »

- « نعم أعرف أنك لاتجيد التخفى .. كما لاتجيد
أى شىء آخر .. »

كان (سايم) يدور بعينيه فى وجوه الرجال ، وأدرك أن كلاً منهم يدارى شيئًا شيطانيًا ما فى ملامحه ، مثل تلك البسمة الجانبية التى صدمته لدى من قابله عند النهر . لا بد من لحظة ما تتبدل فيها الملامح لعشر ثانية فتبدو مشوهة كما نراها فى مرايا الملاهى . إن السكرتير الذى لقيه عند النهر هو (الاثنين) ، وتوحى عيناه بألم مقيم كأنما التفكير فى حد ذاته هو أشنع ألوان العذاب .

الأربعاء كان هو الرجل الوحيد الذى يبدو أن ثيابه تناسبه ، لكن جوًا قاتمًا مبهمًا كان يحيط به ، وخمن (سايم) أنه ماركيز يهودى فى الغالب . فقط فى اللوحات القديمة التى تمثل الطغاة يصطادون أو يقتلون ، يمكنك أن ترى هذه الملامح القاتمة الشريرة القاسية .

أما الجمعة فكان عجوزًا يدعى البروفسور (دى فورمز) ، وكان فى آخر أرذل العمر ، حتى إن الزهرة الحمراء التى يضعها كانت تتناقض بوحشية مع وجهه الشاحب الميت . وخطر لـ (سايم) شعور منفر بأن هذا الرجل لو تحرك لسقطت منه ذراع أو ساق .

أخيرًا كان السبت جالسًا .. كان طبيبًا ممارسًا يحمل اسم (بول) ، ذا وجه حليق وذقن مربع يوحى بالتصميم . ولم يكن فيه ما يلفت النظر إلا عويناته الصغيرة السوداء التى أثارت ذعر (سايم) . ذكرته بذكرى مخيفة ما عن قطع العملة التى يضعونها على جفون الموتى ، كى لا يفتحوا عيونهم بعد الموت .

كان فى مظهره نوع من ادعاء الفحولة ، جعل (سايم) يقدر أنه ربما كان أكثر هؤلاء الأشرار شرًا .

* * *

الفصل السادس

الانكشاف

هؤلاء كانوا الرجال الستة الذين تعاهدوا على تدمير العالم . وقد وجد (سايم) نفسه أحيانًا ينظر لهم كرجال أشرار عاديين ، وأحيانًا كان الذعر الخارق للطبيعة يتملكه .

وكما كانت الأسطورة القديمة تقول إنك لو قصدت أقصى الشرق .. ستجد شجرة ليست بالضبط شجرة ، بل هى مسكونة بروح شريرة .. ولو قصدت أقصى الغرب ستجد برجًا ليس بالضبط برجًا ؛ فإن هؤلاء القوم وصلوا قمة التطرف فى التفكير الإنسانى ، وغابوا خلف الأفق الشرقى أو الغربى للعالم .

كانوا فى الشرفة المشمسة ، يتحدثون بصوت عال مسموع ، عن خطة إلقاء قنبلة على القيصر حين يقابل

رئيس الجمهورية الفرنسية .. يتكلمون بوضوح إلى حد أن نادلى المطعم كانوا يبتسمون ويضحكون من هذه الدعابات الظريفة .. وكان المكلف بالعملية هو الماركيز . لم يكن أحد يهتم بـ (سايم) ، لكن ما ضايق هذا الأخير وأثار فزعه فى النهاية ، هو أن الرئيس لم يبعد عينيه عنه لحظة .. شعر (سايم) بأنه من زجاج ، وأن الرئيس عرف بلا شك أنه جاسوس .

نظر للميدان فرأى رجل شرطة .. رجل شرطة خالى البال منسق الثياب يوحى بسلطة النظام والعقل ، لكنه لا يستطيع أن يناديه لأنه مرتبط بقسم مع (جريجورى) .. قسم أحمق لكنه يمثل شرفه كله .

والشىء الذى لم يدركه (سايم) وقتها هو أنه بدأ ينهزم أمام العدو .. لقد بدأ يوقن أن الأحد يمثل ما هو أكبر من الإنسان ، بحجمه الأكبر من أن يرى ، وقسماته الأكثر وضوحًا من أن تفهم . ويبدو أنه بدأ يفتن بما يمثله الرجل من ثقافة وقوة معًا . كان (سايم) يعرف أنه جبان بما يكفى كى يخشى الجبروت ،

لكنه ليس جبانًا إلى حد أن يحترمه . كان الزعيم يلتهم طعامه بجشع وشهية مفتوحة مخيفة ، لكنه برغم هـذا ظل يحتفظ بسطوته وسيطرته . قال الماركيز وهو يضع الزبد والمربى على شريحة خبز :

ـ « لا أدرى .. ربما كان علينا أن نفعلها بسكين ؟ جميل أن يغرس المرء سكينًا فى قلب رئيس فرنسى .. »

قال السكرتير :

ـ « أنت مخطئ .. إن الديناميت هو رمزنا ويمثل لنا ما هو أكثر من مجرد التدمير .. إنه يتمدد كعقولنا وأفكارنا ..

يتمدد .. هذا هو الأساس .. »

هنا أظلمت السماء لأن الرئيس نهض وقال :

ـ « قبل أن نتكلم ، أريد أن ندخل غرفة منعزلة .. ثمة أشياء مهمة يجب مناقشتها .. »

نهض (سايم) واجف القلب .. لكنه سمع من بعيد

من مكان ما فى الشارع صوت أرغن .. أرغن يعزفه أحد الفقراء المؤمنين بالله والعاشقين للحياة برغم بؤسها . جعله هـذا يتماسك نوعًا .. هذه إذن حرب بين الأرغن وبين الفوضوية .. ولسوف ينتصر فيها .

اقتادهم الرئيس إلى درج جانبى ، فغرفة مظلمة رطبة صغيرة . أوصد الباب بعدما دخلوا جميعًا ، فقال البولندى بلهجة مستحيلة الاختراق :

ـ « كده كده .. تقول إنك لن تهتبى .. ثم هين تقرر الكلام الجاد تدهل هدا الصندوق !! »

بلهجة أبوية متهكمة قال الرئيس :

ـ « هـذه أشياء تفوق فهمك يا (جوجول) .. لقد سمعنا الخدم نهذى أولاً ، لهذا لن يهتموا بنا ، بينما لو بدأنا بالنزول هنا لراحوا جميعًا يتلصصون علينا من ثقب المفتاح .. يبدو أنك لاتفقه شيئًا عن البشر .. والآن أرجو أن تجلس إلى المائدة ، لأننا سنقول شيئًا مهمًا للمرة الأولى هذا اليوم »

لم يكن (سايم) يتوقع الصدمة التالية .. إذ قال الرئيس :

- «جمعتكم هنا لأن ما سأقول سيكون صادمًا ، حتى بالنسبة للسقاة هنا الذين اعتادوا سماع أغرب الآراء منا .. أولاً سندع كل المشروعات القادمة مع شخص موثوق به ، وإننى أرشح د. (بول) .. »

وضرب المنضدة بقبضته وصاح :

- « لن تذكر كلمة واحدة فى هذا الاجتماع عن مشروعاتنا القادمة .. ولا حرفًا !! »

ظل (سايم) ثابتًا فى مقعده ويده على قبضة مسدسه فى جيبه .. حين يجئ دور الهجوم عليه ، فلسوف يبيع حياته باهظة .. على الأقل سيثبت أن (الأحد) يموت كالبشر ..

وضع الرئيس يده العملاقة على المنضدة كأنها زعنفة سمكة عملاقة :

- « نحن لا نبالى بالغرباء .. فهم سيحسبوننا حمقى

يتمازحون .. الخطر كل الخطر هو واحد منا لكنه لا يؤمن بما نعتقده .. ويعرف مدى جديتنا .. هناك جاسوس فى هذه الغرفة .. خائن على هذه المائدة .. واسمه هو .. »

وارتجف (سايم) .. هنا أردف الرئيس :

- « (جوجول) .. ذلك الأحدب الذى يزعم أنه بولندى .. »

مد (جوجول) يديه لجيبه وأخرج مسدسين لكن ثلاثة رجال وثبوا إلى حنجرته .. وتهاوى (سايم) يسترخى فى مقعده وقد أضناه الإحساس بالخلاص ..

★ ★ ★

الفصل السابع

مسلك بروفسور (دى فورمز) المحير

ـ « اجلسوا !! »

قالها الرئيس بصوت آمر ، فجلس الجميع حتى المشبوه نفسه ..

ـ « والآن يا سيدى .. هلا مددت يدك فى جيب سترتك لأرى ما تخفيه هناك ؟ »

أيقظ هذا (سايم) تمامًا ، لأن البولندى المزعوم أخرج بطاقة لامعة زرقاء ، لاتختلف كثيرًا عن البطاقة التى يخفيها هو نفسه فى جيبه . البطاقة التى تسلمها حين التحق بشرطة ملاحقة الفوضويين . قال الأحد :

ـ « أعتقد أنك تفهم موقفك الآن تمام الفهم .. »

ـ « تمامًا .. ولا تنكر أنه ما من بولندى يستطيع تقليد لهجتى هذه ! »

كان التأثير صادمًا .. فجأة صار الرجل يتحدث العامية الإنجليزية (الكوكنى) دون شائبة واحدة ، كأنما ترى رجلاً صينيًا يتحدث اللهجة الأسكتلندية فجأة وبطلاقة .. وبنفس السهولة نزع الرجل لحيته المستعارة وشعر رأسه الأشعث ..

فى هدوء قال الرئيس :

ـ « والآن أعتقد أنك تروق لى .. ولسوف أتضايق لدقيقتين لو سمعت أنك مت ميتة معذبة ، لهذا سأسمح لك بالرحيل .. فقط لو سمعت عنك ثانية ، أو سمعت أنك أبلغت الشرطة ، فلسوف أعرض نفسى لهاتين الدقيقتين الأليمتين »

لم يصدق الجاسوس أذنيه ، وغادر المكان ملهوفًا .. كان يتظاهر بالثبات ، لكن (سايم) سمعه يتعثر فى الخارج ..

قال الرئيس :

ـ « والآن الوقت يمر بسرعة ، وعندى اجتماع فى إحدى اللجان الإنسانية .. لذا نلتقى هنا الأسبوع القادم

للإفطار .. لا أرغب فى مناقشة أى شىء آخر .. »

صاح السكرتير محتجًا :

ـ « لكننا لم نناقش العمليات القادمة .. المفروض أن نفعل .. خاصة وقد رحل الجاسوس »

ـ « لو أنك ذهبت لدارك وسلقت رأسك كأنه ساق لفت ، فلربما أحسنت التفكير .. كيف تعرف يا أحمق أنه ليس بيننا جاسوس آخر ؟ »

ومن جديد ارتجف (سايم) .. لو لم يكن الزعيم قادرًا على فضحه كـ (جوجول) ، فهو غير قادر على الثقة به كالآخرين .. كان الأربعة الباقون ينهضون الآن ، عازمين على البحث عن مكان للغداء ، لأن الوقت كان منتصف اليوم الآن .. وخرج (سايم) بدوره إلى ميدان (ليستر) ، وأثار دهشته أن الجليد بدأ يسقط .. أثار دهشته أكثر أن هناك متجرًا على الجانب الآخر ، وأن رجلاً يقف أمام الزجاج يتأمل فى إصرار امرأة قبيحة تقف خلف الزجاج فى قميص نوم متسخ .. إنه البروفسور (دى فور) العجوز ..

برغم الطقس وبرغم الجليد بدا أن هذا الرجل لن يتزحزح أبدًا .. غريب هذا .. قدر أن الرجل ـ مهما كان غريب الأطوار ـ لا يهيم حبًا بهذه المرأة القبيحة ، لكنه بالتأكيد مصاب بمرض ما من أمراض الشيخوخة ، يجعله يتصلب لفترات .. سُر (سايم) لأن هذا العجوز المهدم لن يلاحقه .. على الأقل هو بحاجة إلى ساعة واحدة بعيدًا عن هذا الجو المسموم .. ساعة يدرس فيها الموقف ..

مشى فى الشوارع قليلاً ثم قرر أن يتناول وجبة فى أحد مطاعم (سوهو) . دخل المطعم فأصابته الدهشة لأنه وجد البروفسور الفوضوى جالسًا إلى منضدة يشفط اللبن من كوب كبير . اندفع خارجًا من المطعم ووقف فى الجليد بالخارج ، وسأل نفسه وهو يعض شاربه الأصفر :

ـ « أتكون هذه الجثة تقفو أثرى ؟ لن يكون الأحد غبيًا إلى حد إرسال رجل أعرج خلفى .. »

مشى طويلاً نحو حديقة (كوفنت) ، بينما الجليد يتزايد ، ويلسعه كأنما هو ألف نحلة .. دخل مقهى فى

(فليت ستريت) وطلب قهوة سوداء .. فما إن فعل حتى دخل البروفسور العجوز إلى المكان ، وطلب كوبًا من اللبن !!

سقطت عصا (سايم) منه على الأرض محدثة دويًا معدنيًا ، لكن البروفسور لم يتحرك .. كان (سايم) الآن ـ وهو بارد بطبعه ـ يلهث كما يلهث الريفى حين يرى ألعاب الحواة .. إنه لم ير عربات أجرة تتبعه ، ومن المؤكد أن الرجل جاء مشيًا .. والرجل يمشى كالبزاقة بينما هو يمشى كالطيور ..

لم يتمالك إلا أن يأخذ عصاه ويترك قهوته التى لم يذقها ، ويهرع إلى الباب الدوار .. كانت هناك حافلة تدور حول المنحنى ، فهرع وتمسك بها ، وسرعان ما كان يجلس فى مقعده .. هنا سمع من وراء مقعده لهاثًا من صدر أضناه الربو .. نظر ليرى قبعة ووجهًا مألوفًا يرتقيان درجات الحافلة .. إنه البروفسور (دى فورمز) ذاته .. حركاته بطيئة مرهقة .. كل أطرافه ترتجف .. لاتكاد تدب فيه الحياة .. لكن كل شىء يدل على أنه ركض وراء الحافلة ووثب ليركبها ..

وثب (سايم) من الحافلة ، وانطلق يركض عبر أزقة

(فليت ستريت) الجانبية .. يدخل هنا ويخرج من هناك .. حتى أتم عشرين دورة كاملة ليتأكد ما إذا كان هناك من يراقبه .. وقف يلهث ويصغى السمع .. كانت الغيوم تملأ سماء لندن ، حتى إن الليل دنا قبل الأوان ، والكآبة كانت تفعم الجو .. هنا سمع صوت عكاز ذلك الأعرج القادم من جهنم ..

قرر أن يخرج إلى الشارع العام ، ووجد نفسه أمام كاتدرائية القديس (بول) .. كانت الشوارع خالية تمامًا وأدرك أن هذا منطقى لأن العاصفة الثلجية تزداد شدة ، ولأن اليوم هو الأحد .. السماء خضراء غريبة كأننا تحت الماء لافوق الأرض .. المصابيح مضاءة فى هذا الوقت المبكر .. والكاتدرائية تبدو كأنما هى جسم أسود يجثم على السماء ..

كان يعرف أن الشبح الشيطانى يتبعه ، وأحس أن الكاتدرائية تحميه قليلاً .. رفع العصا فى يده واستدار ليواجه مطارده ..

جاء البروفسور ببطء عبر الزقاق من خلفه .. كان



الآن لم يعد أحدهما يتظاهر بشىء ، وقد راح الرجل يمشى وراءه بخطى واسعة .

كل ما فيه معوجًا كأنما تشوه شكله من المشى فى كل الأزقة الملتوية التى مشى فيها .. ينتظره (سايم) كما انتظر القديس (جون) التنين ، أو كما ينتظر المرء تفسيرًا نهائيًا أو يموت .. لكن الرجل جاء ، ومر به كأنما هو غريب عنه تمامًا ..

كاد (سايم) يجن . الرجل يتصرف ببراءة كأنما كل هذه المطاردة كانت مصادفة .. تملكه نوع من الحقد الصبيانى ، فلوح بعصاه كأنما يطير قبعة الرجل ، وقال شيئًا على غرار : امسكنى لو استطعت .. ثم راح يركض فى الساحة .

الآن لم يعد أحدهما يتظاهر بشىء ، وقد راح الرجل يمشى وراءه بخطى واسعة ، وإن احتفظ وجهه بجدية ووقار غريبين . اتجه (سايم) إلى الميناء .. دخل إحدى الحانات القذرة الملأى ببحارة أجانب ، حيث لابد أن المشاجرات تتم بالمدى ، وحيث يباع الأفيون بالتأكيد .

بعد قليل دخل البروفسور المكان ، وطلب كوبًا من اللبن .

* * *

الفصل الثامن

البروفسور يفسر

أخيرًا وجد (سايم) نفسه جالسًا فى مقعد ، وأمامه وجه البروفسور الشاحب ، راح يمنى نفسه أنه ربما كانت المطاردة لسبب لا يفهمه .. ربما كان هناك تقليد يقضى بمطاردة العضو الجديد عبر الأزقة .. ربما هذه من طقوس الاحتفال بالخميس .. ربما ..

كان يستعد لأول سؤال دبلوماسى ، حين فاجأه الفوضوى العجوز بسؤال لا كياسة فيه :

- « هل أنت شرطى ؟ »

كان سؤالاً غريبًا .. آخر سؤال توقعه .. فلم يجد إلا ما يكفى لاصطناع السخرية :

- « أنا شرطى ؟ لِمَ تقول ذلك ؟ »

- « الأمر سهل .. أنت تبدو كرجل شرطة .. »

- « هل نسيت وأخذت قبعة شرطى من المطعم ؟ هل يوجد رقم ملصق على ثيابى ؟ »

- « هل أنت مخبر ؟ »

سألها الرجل فى نفاد صبر ثم كرر السؤال وهو يضرب المنضدة بكفه العجوز ..

- « لا ! »

قالها (سايم) كأنه رجل يتوسل للجلاد على منصة المشنقة ..

- « هل تقسم على هذا ؟ أنت لا تعمل مع (سكوتلانديارد) .. أنت فوضوى ومفجر ديناميت .. »

- « لست مع الشرطة بأى شكل .. »

استرخى البروفسور فى مقعده وقال :

- « هذا مؤسف .. لأننى معهم !! »

وثب (سايم) من مقعده وهتف :

- « ماذا تقول ؟ »

- « أقول إننى رجل شرطة .. لكن لاجدوى من هذا مادمت تقسم أنك لست منهم .. »

وألقى على المنضدة ببطاقة زرقاء تماثل تمامًا ما فى جيب (سايم) .. هنا فقط أدرك (سايم) كم كان أحمق .. لم يكن الشيخ الذى فر منه سوى زميل فى الشرطة، وبالطبع كان يصطنع العاهة والشيخوخة، طوح برأسه إلى الوراء وراح يضحك فى هستيريا .. يضحك، حتى إنه أثار دهشة بعض السكارى، وسأله أحدهم :

- « علام تضحك يا ريس ؟ »

- « على نفسى »

وواصل الضحك المجنون، حتى نصحه البروفسور بأن يتوقف، سأله (سايم) فى استمتاع :

- « إذن أنت لست شيخًا .. »

- « لا أدرى .. لقد احتفلت قريبًا بيوم ميلادى الثامن والثلاثين .. لكن لا أستطيع أن أنزع المكياج هنا، لأنه معقد وصعب الإصلاح .. »

- « هل كنت تعرف أن (جوجول) عميل هو الآخر ؟ »

- « لا .. وقد حسبت الزعيم يعنينى وارتجفت هلعًا .. »

- « لكن معنى هذا أننا كنا ثلاثة !! ثلاثة ضد أربعة ! فقط لو كنا نعرف وقتها لما خشينا شيئًا .. »

أسود وجه البروفسور وقال :

- « حتى لو كنا ثلاثمائة فلا جدوى من أن نهزم الأحد !! »

عاد وجه الأحد سريعًا وبوضوح تام إلى ذاكرة (سايم) وقد أثار هذا رعبه .. كل الوجوه الأخرى مهما كانت شريرة تبهت مع الوقت، إلا هذا الوجه فقد ظل حاضرًا مخيفًا، كان عليه أن يواجه الرجل لأن المرء يجب ألا يترك شيئًا يخافه فى الكون دون مواجهة، قال للبروفسور فى حماسة :

- « علينا أن نقاوم، وأول شىء علينا أن نمنع عملية باريس هذه .. »

- « وكيف ؟ إن الأمر لم يناقش وهو متروك كله للدكتور (بول) كما تعلم .. »

- « أريد الوصول إليه .. أين هو ؟ هل تلحق بى ؟ »

قال البروفسور وهو يحمل قبعته :

- « أيها الشاب .. يسلينى كثيرًا أنك تعتبرنى جبانًا .. ليكن . أنا مؤمن باستحالة قهر الأحد .. سأدعك تعرف هذا بنفسك .. »

غادر الاثنان الحانة ، وكان الجليد قد توقف ، إلا أنه ذاب فى برك صغيرة زلقة هنا وهناك ، وكانت بعض كتل الجليد لم تذب بعد ، لكنها اكتسبت لونًا رماديًا فى الضوء الخافت ، مشيا قليلاً حتى وصلا إلى ضفة النهر ، ثم توقف البروفسور وقال :

- « من هنا يمكننا أن نرى ما إذا كان الدكتور قد آوى إلى فراشه بعد .. إنه مولع بصحته ويحب النوم مبكرًا .. إن غرفة نومه يمكن رؤيتها من هنا .. »

على الناحية الأخرى من (التيمز) كانت مجموعة من البيوت تبدو كأنما هى معلقة على صفحة الماء .. وأحدها بالذات كان شامخًا كأنه برج (بابل) بآلاف العيون .. وشعر (سايم) الذى لم ير ناطحات سحاب أمريكا قط أنه فى حلم ..

ضرب البروفسور عنق حذائه الطويل بعصاه وقال :

- « لقد تأخرنا ونام الرجل .. تعال نتناول العشاء وغداً نراه .. »

كان (سايم) يشعر براحة بالغة .. إن الرياضيات تقول إن الواحد يتضاعف حين يضاف لواحد آخر ، لكن (سايم) شعر بأنه تضاعف الآن لمائة ألف ضعف .. وراح يسكب قصته كلها فى أذن جاره .. وفى النهاية قال :

- « لقد تنكر (جوجول) جيدًا لكنه بالغ بعض الشىء .. »

- « لقد حاول أن يبدو كما يتخيل الفوضوى .. أما أنا فأرسم على وجهى (بورتريه) .. بالواقع أنا بورتريه

حى يمثل رجلاً حقيقيًا يدعى البروفسور (دى فورمز) ، وهو الآن فى (نابولى) على قدر علمى .. أنا ممثل ، واسمى الحقيقى (ويلكز) .. وهناك عرفت كثيرين من الأجانب الفارين ، وسكان قاع المجتمع .. وفى ذات مرة تعرفت الفيلسوف الألمانى العجوز العدمى (فورمز) .. كان مقززًا إلى حد بشع ، وقد خطر لى أننى راغب فى تقليده مظهرًا وسلوكًا .. جربت أن أتنكر مثله وخرجت لرفاقى .. كنت أتوقع سماع الضحكات ، لكننى قوبلت بصمت مذهل .. لقد حلت بى لعنة الممثل الخارق للعادة .. أذهلتهم ، ولم يتصور أحد أننى أى شىء سوى بروفسور ألمانى عدمى .. كنت أفضل منه فى هذا الدور ، فهو شيخ ولا يستطيع أن يبدو بالضعف الذى يستطيع شاب مثلى أن يبدو به .. كان مشلولاً بحق لكن الشلل منعه من أن يبدو مشلولاً مثلى !

« بعد أيام حلا لى أن أخرج إلى الشارع أجرب شخصيتى الجديدة ، لكن رجل شرطة استوقفنى وقال لى إننى مطلوب فى قسم الشرطة .. قلت بلهجة ألمانية مصطنعة : نعم أنا مطلوب .. لكن من بؤساء الأرض

ذهبنا للمخفر ، وهناك عرفت أن شهرة أداتى لدور البروفسور جعلت (سكوتلانديارد) ترغب فى ضمى لها .. وكانت هذه هى البداية ..

« ومن يومها صرت البروفسور فى كل شىء ، حتى إننى أجد عسرًا فى التخلص من مشيته وطريقة كلامه حتى حين أكون وحدى .. »

* * *

الفصل التاسع

الرجل ذو العوينات

قال الرجل الذى كان البروفسور :

ـ « المفترض أن نلقى غدًا الدكتور (بول) لنعرف السر منه ، وهى مهمة أكثر خطورة وعسرًا من سرقة جواهر التاج من برج لندن .. إن هذا الرجل ـ بعد الرئيس ـ لأخطر أعضاء المجلس وأذكاهم وأكثرهم حدة ، إنه ملىء بالذكاء والحيوية والفحولة ، وما كان الأحد أحمق حين أخفى أسراره تحت شعر هذا الرجل ذى العوينات لو أردنا أن نخرج سالمين من هذه المقابلة ، فعلينا أن نضع شفرة للتفاهم بيننا بالطرق على المنضدة أو الركبتين .. »

وراح يطرق بيده على المنضدة ويعلم (سايم) تلك الشفرة ، التى ابتكرها من قبل ، ولم يجد (سايم) عسرًا فى التعلم لأنه كان سريع الفهم شغوفًا بالألغاز ، وفى الحقيقة راح يحلم كثيرًا بهذه الطريقة فى أثناء النوم .

* * *

كان د . (بول) جالسًا إلى منضدة فى شقته منهمكًا بالكتابة ، بينما أضواء الفجر تتبدى من وراء ستار النوافذ ، لايدرى (سايم) لماذا تذكره هذا المشهد بالثورة الفرنسية والمقصلة ، وكأن الطبيب الجالس هو (مارا) أو (روبسبير) يوقع أوامر الإعدام .. كان يضع عوينات سوداء بدت كأنما فى جمجمته فجوتان سوداوان ، وكأن رأسه هو رأس الموت ذاته .. فلما رأى الرجلين ابتسم ونهض بخفة ، وتناول معطفًا من على مشجب خلفه وأحكمه على جسده ..

وقال البروفسور بلهجة (دى فورمز) البطيئة :

ـ « أعتذر لإزعاجك فى هذه الساعة المبكرة يارفيق .. لكن أعرف أنك أعددت عدة كل شىء لرحلة باريس ، ولدينا أنباء لاتحتمل التأجيل .. »

ابتسم الدكتور (بول) ولم يتكلم .. فواصل البروفسور الكلام فى وهن :

ـ « إن الرفيق (سايم) وأنا لدينا مايحملنا على أن نطلب منك تأجيل هذه المهمة .. والوقت لايسمح بالتوضيح لكننا سنشرح لك لو رأيت هذا ضروريًا .. »

كان الطبيب ثابتًا صامتًا إلى درجة حطمت أعصاب (سايم) .. ابتسامته خفيفة ، وإيماءات رأسه مهذبة ، لولا صمته الغريب .. وهنا راحت أنامل البروفسور تقرع على المنضدة وقرأ (سايم) الرسالة : هلم خذ دورك أنت .. فقد امتصنى هذا الشيطان حتى الجفاف !

قال (سايم) فى شجاعة مرتجلة :

- « الحقيقة أن الحظ أسعدنى بمقابلة مخبر ، حسبنى شخصية مهمة .. دعوته إلى الحانة وقدمت له الكثير من الشراب حتى انحلت عقدة لسانه .. وقال لى إنهم يتوقعون خلال أيام أن يعتقلوا الماركيز فى فرنسا .. »

هنا أشار له البروفسور أن يتركه يستمر من هذه النقطة .. وكانت أعصاب الرجلين موشكة على الانفلات من نظرات الرجل الثابتة وابتسامته المهذبة ..

شىء ما بدأ يتلاعب فى نفس (سايم) .. نوع من وحى الشعراء ، ثم تحول هذا إلى يقين ..

مال إلى الأمام وصاح بصوت آمر :

- « دكتور (بول) .. هلاّ نزعت عويناتك من فضلك ؟ »

وثب البروفسور من مكانه وقد نسى شلله ونظر فى ذعر غاضب إلى (سايم) .. لكن (سايم) كان الآن كرجل وضع ثروته وشرفه على مائدة القمار وهو بانتظار نهاية اللعبة .. ومن دون كلام مد الدكتور يده إلى عويناته ونزعها .. كان المشهد لا يصدق .. كأنما الرجل تحول إلى ضفدع أمام عينيهما .. بالواقع لم يكن المشهد أقل غرابة .. لقد كان الوجه الذى طالعهما وجه صبى .. صبى فى ملامحه براءة وطيبة لا تخفيان على أحد ..

وهتف (سايم) فى جذل :

- « أنا شاعر وحدسى لا يخطئ !! كنت أعرف هذا !! فقط العوينات السوداء هى ما أعطاه سمت الشياطين بينما وجهه وسيم قسيم .. »

عاد البروفسور للكلام مرتجفًا :

- « نعم .. إنها تحدث فارقًا .. والآن بخصوص العمليات يا دكتور .. »

- « سحقًا للعمليات ! ألا ترى وجهه ؟ إنه منا ! سأخاطر بهذا بنفسى .. »

ووضع البطاقة الزرقاء اللامعة على المنضدة ، فانفجر الطبيب ضاحكًا ، وللمرة الأولى سمعوا صوته :

- « يسعدنى أنكما جئتما مبكرين أيها الشابان .. يمكننا الذهاب لـ (باريس) معًا .. »

وطوح ببطاقة زرقاء مماثلة إلى المنضدة .. هنا هتف (سايم) فى ذهول وهو يضرب الجدار بقبضته :

- « إذن كان هناك مخبرون أكثر من مفجرى الديناميت فى ذلك المجلس اللعين ! »

- « إذن كنا أربعة ضد ثلاثة .. »

قال البروفسور :

- « بل كنا أربعة ضد واحد لا قبل لنا به .. »

قال الطبيب بلهجة ذات معنى :

- « واحد من هؤلاء الثلاثة لاينتمى للبشر .. »

وحكى لهم الطبيب كيف أنه التحق بشرطة مكافحة الفوضويين ، لكن شكله كان ميئوسًا منه لأنه يبدو (كالدستور البريطانى) كما قالوا .. لايوحى إلا بالفضيلة والتهذيب ، وهو بهذا فاشل تمامًا ولن يصدق أحد أنه فوضوى ، مهما قال أو فعل .. لكن القائد العبقرى الذى يجلس فى غرفة مظلمة والذى لم يره أحد قط ، قال لهم إن عوينات سوداء تكفيه .. كتفان عريضان وشعر قصير ، ولسوف يصرخ الأطفال حين يرونه فى الشارع ..

كان الرجل عاصفة بحق ، ولم ير (سايم) ولا البروفسور متى وكيف حجز التذاكر ، ولا أخذهم إلى الميناء .. فجأة وجدوا أنفسهم فوق القارب المتجه إلى (كاليه) .. قال لهم الدكتور :

- « لقد سبقنا الماركيز حاملاً القنبلة ، لكننا سنلحق به فى الوقت المناسب .. »

- « وماذا نفعل وقتها ؟ »

- « أعتقد أن علينا تسليمه كمفجر قنابل .. لكن هذا ليس بوسعى لأننى مرتبط بقسم للسكرتير ، وهو أتعس رجل فى الكون - ربما بسبب سوء هضمه أو بسبب مبادئه الهدامة - إنه فى جهنم بالفعل ، وأنا لا أستطيع أن أحنث بوعدى مع رجل كهذا ، لأننى أكون كمن يطلق النار على مريض جذام .. »

قال (سايم) :

- « وأنا كذلك مرتبط بقسم لا أستطيع التحرر منه .. لا يمكننى إبلاغ الشرطة .. »

قال البروفسور :

- « وأنا كذلك .. لقد ارتكبت جل الآثام حين كنت ممثلاً ، لكننى لا أنوى الحنث بالقسم أبدًا .. »

اتضح لهم موقفهم الآن بوضوح أكثر .. من الواضح أن عليهم أن يتصرفوا بعيدًا عن الشرطة ، وفى الغالب لن يكون أمامهم إلا خطف الماركيز أو تعطيله إلى أن يرحل قيصر روسيا فى سلام ..

* * *

الفصل العاشر

المبارزة

كانت معنويات (سايم) عالية بشكل لا يمكن تفسيره .. فقد استقر رأيه على الطريقة الوحيدة المثلى لتعطيل الماركيز .. لقد اتجه إليه وهو جالس مع نبيلين فرنسيين فى أحد الأندية ، واتهمه بأنه أهانه ، وأنه يرغب فى جذب أنفه (وهى دعوة للمبارزة) .. قال الماركيز فى حيرة :

- « كيف أهنتك ؟ إننى كنت أتكلم مع السيدين عن (فاجنر) ، وقلت إننى أحب أن أسمعه حين يُعزف جيدًا .. »

- « هذا هو !.لقد أهنت أمى .. فهى كانت تعزف (فاجنر) بصورة سيئة ! »

- «وأبديت إعجابى بالفتاة ذات الشعر الأسود .. »

ـ « أنت مصر على إهانتى ! أمى كانت حمراء الشعر ! »

وفهم الرجال أن الفتى ثمل ، وأنه يريد الاستفزاز لمجرد الاستفزاز .. فلا بأس من تعليمه درسًا قاسيًا .. وسرعان ما قبل الماركيز تحدى الفتى للمبارزة .. المبارزة التى اشترط الفتى أن تتم بالسيف ، وفى الساعة السابعة صباحًا ..

كان يعرف أن الماركيز بارع بالتأكيد فى المبارزة ، لكنه على الأقل يستطيع تعطيله .. فلو طالت المبارزة ، لما استطاع الرجل اللحاق بقطار السابعة والنصف المتجه إلى باريس ، وبالتالى يفقد موكب الرئيس وضيفه .. وكان أن الماركيز اشترط أن تتم المبارزة فى مكان قريب من خط السكة الحديدية ، ومعنى هذا أنه قرر أن يتخلص من خصمه سريعًا ثم يثب فى القطار ..

وفى الصباح اتجه (سايم) إلى مكان المبارزة مع شاهديه : الطبيب والبروفسور .. كان الربيع فى بداية جماله ، وتناقضت الخضرة والزهور الصفراء اليانعة

بشكل لا يوصف مع ثياب الشهود السوداء وقبعاتهم العالية ..

ـ « فلنبدأ ! »

قالها الماركيز فى نفاد صبر وأطاح بزهرة بطرف سيفه .. كان (سايم) بحاجة إلى عشرين دقيقة لا أكثر ، يمنع فيها الماركيز من قتله ، وربما يحاول أن يؤذيه .. بعد العشرين دقيقة يكون القطار قد رحل ..

ـ « التحم !! »

قالها الماركيز وهو يلوح بسيفه .. وسرعان ما راح السيفان يتقارعان .. كان (سايم) يدرك مدى براعة خصمه وقوته ، وقدر أن هذه فى الغالب آخر ساعة له فى الحياة .. لكنه فى هذه اللحظة شعر بحب عارم للكون .. حتى كان بوسعه أن يشعر بالعشب تحت قدميه ينمو ..

كان الماركيز يحارب وعينه تنظر من آن لآخر إلى خط السكة الحديدية وراء ظهر (سايم) ، وفجأة بدا

عجولاً نافد الصبر إلى درجة أنه بدا كأنما يهاجم بمائة سلاح فى الآن ذاته .. لم يحتج (سايم) إلى النظر للوراء ، فالأمر واضح .. إن قطار (باريس) قد ظهر الآن .. وهذا شتت انتباه الماركيز إلى حد ما ..

يوشك (سايم) أن يقسم أنه طعن خصمه أكثر من مرة ، بل إنه فى مرة من المرات كاد يكسر السيف وهو يولجه فى جسد الماركيز ، لكن الرجل تراجع للوراء وواصل الهجوم ، ونظر (سايم) لسيفه فى حيرة .. ولا نقطة دم واحدة .. جن جنونه وقرر هذه المرة أن يوجه اهتمامه لعنق الماركيز .. سدد ذؤابة السيف إلى حنجرة الرجل وأغمدها بقسوة وإصرار ، فلما انتزعها لم ير نقطة دم واحدة ..

انتاب (سايم) ذعر خارق للطبيعة .. صحيح أنه أصيب بذعر مماثل أمس حين حسب الرجل المشلول يركض وراءه ، لكنه الآن يوشك على الاعتقاد بأن هذا الماركيز شيطان .. ربما هو الشيطان ذاته ..

الآن يتعالى صوت صفارة القطار وهو يتوقف فى المحطة القريبة ..

فجأة توقف الماركيز عن القتال وألقى بسيفه صائحًا :

- « لحظة ! أريد أن أتكلم .. لقد جاء هذا الشاب أمس وطلب أن يشد أنفى ، وأنا الآن أعطيه هذه الفرصة .. »

فى حنق صاح الدكتور :

- « لكن هذا فعل غير لائق .. »

- « لكنى أعرضه عليه الآن .. إن الموضوع بالغ الأهمية ، ولسوف يسوى ما يحسب أننى ألحقته به من مهانة .. فهل ترغب فى شد أنفى أم لا ؟ »

وانحنى للأمام وقرب أنفه الأرستقراطى من الفتى ، فنظر (سايم) حوله فى تردد ثم اعتصر الأنف كأنما ينزعه من مكانه وشده إليه .. وفجأة خرج الأنف ليستقر حرًا فى يده ..

انفجر الماركيز ضاحكًا وصاح :

- « لو كان هناك من يفيد من حاجبى الأيسر فعليه به .. »



ومد يده ببساطة ليسلخ حاجبه الأيمن ومعه جزء لا يستهان به من وجهه .

ومد يده ببساطة ليسلخ حاجبه الأيمن ومعه جزء لايستهان به من وجهه .. هنا صاح أحد شاهديه فى اشمئزاز :

ـ « لو كنت أعرف أننى أعمل لدى جبان يلف نفسه بالضمادات من أجل المبارزة !! لهذا لم تدمك أية طعنة ! »

ـ « أنت مخطئ .. لكن لا وقت للتفسير .. فقد وصل القطار .. »

كان الآن يبدو كفزاعة لها نصف وجه مسلوخ ، تقف ملوحة بذراعيها .. ومزق الجمة التى يضعها على رأسه فى هستيريا .. وهتف :

ـ « أنا لا أهتم بالقطارات .. لا أهتم بأن ألحق بالقطار ، لكنى أهتم بأن يلحق القطار بى !! »

ـ « وما معنى هذا ؟ »

ـ « يعنى كل شىء .. إن الأحد يضعنا الآن فى راحة يده .. »

ـ « نحن .. ما معنى نحن ؟ »

ـ « الشرطة طبعًا .. »

وكشف رأسه بالكامل ، وكان شعره أشقر قصيرًا لامعًا منسقًا ، كشعر كل كونستابلات الشرطة ..

ـ « أنا المفتش (راتكليف) .. والشرطة تعرف اسمى جيدًا ، ومن الواضح لى أنكم من الشرطة .. لكن لو كنتم تشكون فى شخصيتى فإليكم البطاقة الزرقاء .. »

فى تعب وسأم لوح البروفسور بيده :

ـ « أوه .. لاترنا إياها .. إن لدينا أطنانًا منها ! »

وهتف (سايم) فى دهشة :

ـ « رباه ! لكن معنى هذا أن كل مجلس الفوضويين هو من المخبرين .. لم يكن هناك فوضوى واحد سوى الأحد .. ما معنى هذا ؟ »

ـ « معناه أن الأحد أذكى منا جميعًا .. يضع كل المخبرين فى مجلس واحد ، ويتركهم يراقبون بعضهم ،

بينما المجلس الأعلى ليس أعلى على الإطلاق .. كان يمسك الخيوط كلها ويعرف كل شىء ، بينما نحن نلعب المساكة كالأطفال الحمقى .. أما عن الشىء الذى يهمنى فى القطار ، فهو أننى أعرف أن الأحد وسكرتيره غادرا هذا القطار الآن بالذات !! »

ثم إنه نظر بعيدًا ، ومد يده فى حقيبته ليخرج منظارًا مقربًا ووضعه على أنفه ، وقال :

ـ « كما توقعت .. إن الأحد قادم إلينا من المحطة ومعه عصابة من رجاله .. »

تناول د. (بول) المنظار ونظر بدوره ، ثم قال :

ـ « ربما كنت تبالغ .. ليس الأحد بينهم ، وقد يكون هؤلاء مجموعة من السياح يمشون فى اتجاهنا .. »

ـ « لو كان هذا صحيحًا ، فلماذا يغطى كل منهم نصف وجهه بقناع أسود ؟!! »

* * *

الفصل الحادى عشر

المجرمون يطاردون الشرطة

سأل (سايم) الماركيز ، بينما هم يركضون بين الأشجار :

ـ « هل لى أن أعرف إلام فرارنا ؟ »

ـ « إلى مكان لايسيطرون عليه .. إن أصابع الأحد فى كل مكان .. ربما لم يفلت منه سوى هذا المرج الذى نركض فيه ! »

ـ « لا أصدق هذا .. مستحيل أن يكون كل العالم قد صار فوضويًا فجأة .. »

ـ « أنت تقع فى الوهم الشائع أن الفقراء يمكن أن يكونوا فوضويين .. الفقراء قد يصيرون ثوارًا لكن الفوضويين يأتون من صفوف الفلاسفة الأشرار فقط .. الفقير تهمه الأرض أما الفوضوى فلا .. يمكنه فى أى لحظة أن يهجر وطنه ويرحل إلى (نيو غينيا) مثلا ..

الفقير يغضب حين يكون نظام الحكم سيئًا ، أما الفوضوى فلايريد أى نظام حكم أصلاً .. »

فى النهاية قابلوا حطابًا فرنسيًا يعمل ، ومعه عربة امتلأت لنصفها بالحطب .. بعد مساومة قصيرة أقنعوه بأن يقلهم .. اجتازت العربة أكثر الغابة ، وكانت بطيئة لكن سرعتها على الأقل تفوق الرجل العادى .. وبعد قليل بدأت كثافة الأشجار تقل .. نظر (سايم) للوراء فرأى ذلك الحشد من الناس مازال يتبعهم .. حشد غريب من الناس يبدو كل منهم عادى المظهر ، لكنك لو تأملت الطريقة التى يتحركون بها كرجل واحد ، بلاتلك البعثرة المميزة لمسيرات العامة ، لامتلأت منهم ذعرًا ..

قال الماركيز وقد أدرك ما يفكر فيه (سايم) :

ـ « نعم .. هذه هى لمسة الأحد المميزة .. ربما هو بعيد لكنهم يخشونه كالموت .. لهذا يمشون بانتظام ، ويتحركون بانتظام وربما يفكرون بانتظام .. »

أخيرًا يرون البحر ، والمرفأ الصغير المسمى (لانسى) ، ومن خلفهم بدا أن سحابة المطاردين السوداء لم يعد لها وجود .. كاد الجواد يصدم أنفه برجل عجوز له شاربان كثان أبيضان ؛ يجلس فى الشمس خارج مقهى اسمه (الشمس الذهبية) .. فترجل الرجال يسألونه أن يسامحهم .. كان هو صاحب المقهى الصغير ، وهو من نمط نادر يصعب أن تراه إلا فى فرنسا .. رجل طيب سمح القلب يحب الحياة وتحبه ..

هناك استراح الرجال وظفروا ببعض الطعام ، ثم حصلوا على جياد تسمح لهم بمواصلة رحلتهم ، والفرار من جيش الفوضويين الذى يطاردهم ..

★ ★ ★

كانت الشمس تلون الغرب بمختلف الألوان حين وصلوا إلى أقرب مدينة .. وقال لهم الكولونيل ـ وهو فرنسى من أصدقاء الماركيز ـ إن فى هذا البلد خمسة أثرياء ؛ أربعة منهم لصوص ، والخامس صديق شخصى له يمكن أن يقدم لهم العون ، ولديه عربة تعمل بمحرك ..

كانوا يتناقشون فى خططهم ، حين صاح (سايم) :

ـ « لحظة .. ما هذه الضوضاء ؟ »

أصاخوا السمع ، فوصل إليهم ذلك الهدير الصاخب الذى لايعنى إلا شيئًا واحدًا : خيول ! وشحب وجه الكولونيل ولم يدر ما يقول ، بينما تساءل (سايم) وهو يسرع من خبب الفرس :

ـ « ومن أين لهم بالخيول ؟ »

ـ « ربما من نفس المقهى الذى حصلنا على خيولنا منه .. لابد أنهم أرغموه على ذلك .. »

كان د. (رينار) يعيش فى بيت مريح جميل عند أعلى شارع منحدر، يتيح لك أن ترى القادمين بسهولة ..نظروا حولهم ثم قرعوا الجرس ..وكان د. (رينار) ـ حين فتح الباب ـ ميالاً للاستخفاف بمخاوفهم ،وقال إنه لم يسمع عن شىء اسمه حركة فوضوية عامة تجتاح البلاد ..

أشار الكولونيل لأعلى وهتف :

ـ « وهذا ؟ هل هو وهم ؟ »

ونظر الرجال ليروا قوسًا أسود كبيرًا فوق التل .. كان فى الواقع مجموعة من الفرسان على ظهور خيولهم .. وبرغم أن المجموعة كانت تتحرك بانتظام وسرعة واحدة ، فإن أحد الفرسان كان يتقدم الآخرين بفرسه ، وهو يأتى بحركات عدة بيده ، أوحت للأصدقاء أنه هو المطارد ـ بفتح الراء ـ وليس المطارد بكسرها .. وأدركوا أنه ذلك السكرتير المجنون للأحد ..

صاح الكولونيل :

ـ « أكره أن أقاطع هذا الحديث الثقافى .. لكننا بحاجة إلى سيارتك خلال دقيقتين .. »

ابتسم الطبيب وقال :

ـ « أشعر أنكم جميعًا مجانين .. لكن أعوذ بالله من أن يفسد الجنون الصداقة .. هلموا إلى المرآب .. »

كانت لديه ثلاث سيارات ، وكان من العسير أن تجد واحدة منها تعمل ، لأنه كان قليل الاستعمال لها ، لكن حين وجدوا واحدة قابلة للتحرك ، كان الظلام قد بدأ يغطى الكون .. كان هذا أسرع مما توقعوا فإما أن الوقت مر بسرعة خرافية ، وإما أن شيئًا ما حجب ضياء الشمس ..

كانوا الآن يسمعون صوت حوافر ، لكنها حوافر جواد واحد ، وخمن الجميع أنه جواد السكرتير المجنون الذى تقدم الجمع .. إنه قادم .. انحشروا فى السيارة جميعًا ، وحاول (سايم) أن يديرها فلم تستجب .. هنا وصل السكرتير على جواده ، وبابتسامة نصر وقف أمام السيارة ووضع يده على كبودها ..

دارت السيارة فجأة مع المحاولة التالية ، وسرعان ما طار السكرتير من فوق صهوة جواده عشرين ياردة إلى الوراء ، وابتعد الأصدقاء ، على حين امتلأ الشارع بالفوضويين على خيولهم ، وسرعان ما أقالوا سكرتيرهم من عثرته .. كى يستأنف المطاردة معهم ..

كان الظلام دامسًا الآن ، واضطر إلى إضاءة مصباح كى يروا الشوارع التى يمشون فيها ، لأن السيارة لم تكن مزودة بأضواء .. وقال الكولونيل الفرنسى :

ـ « لاتوجد أضواء تعيد لى البهجة إلا أضواء مخفر الشرطة ، الذى سنصل إليه حالا بمجرد الخروج من المدينة .. »

كانت بعض المنازل الآن قد أنارت مصابيحها ، فقال الدكتور (بول) :

- « لاتقل لى إن سكان المنازل هؤلاء فوضويون بدورهم .. لو اشتبكنا مع أعدائنا فلسوف يقاتل سكان المنزل معنا .. »

- « لا أظن .. لسوف يقاتلون ضدنا .. ولسوف ترى !! »

فجأة دوى صوت طلقة ، ومر جوارهم خيط من دخان ، ثم سمعوا صوت محركات سيارات من خلفهم !

قال (راتكليف) فى كآبة :

- لقد حصلوا على سيارتين من الطبيب .. وهم يطلقون علينا الرصاص !! »

واستطاعوا وسط المطاردة الصاخبة أن يروا وجوه بعض من يطاردهم .. لقد كان بينهم الطبيب الودود (رينار) نفسه .. بل وصاحب المقهى الذى حصلوا منه على الخيول !

دفن البروفسور وجهه فى يديه وصاح :

- « لقد جن العالم !! »

فقال د. (بول) فى استكانة :

- « لا .. بل جننت أنا ! »

وهنا اصطدمت السيارة بعمود إضاءة فتهشمت مقدمتها ، وترجل الرجال .. على الأقل قد حطموا شيئًا مثلهم مثل الفوضويين .. ركضوا نحو الشاطئ واستداروا ليواجهوا مطارديهم .. كان الأفق كله يعج بوجوه كارهة غاضبة ، تلتمع فى ضوء المصابيح .. وتعالى الزئير الغاضب من بين الأسنان المطبقة .. يبدو أن أصحابنا صاروا أكثر الرجال الملاعين فى العالم ، ولسبب يصعب عليهم فهمه ..

- « حتى لو جاء رجال الشرطة الآن فلن يقدروا على عمل شىء أمام كل هؤلاء الغاضبين .. »

وجلس البروفسور على صخرة جوار البحر قانطًا ، وقال :

- « كلهم ذهبوا .. لم يعد أحد عاقلاً ، ويبدو أننى سأذهب أنا الآخر .. لم أعد أضمن ألا ترتفع يدى من تلقاء نفسها لتضربنى .. »

رفع (سايم) المصباح الذى كان فى السيارة عاليًا ، وكان السكرتير قد لحق به غاضبًا يوشك الزبد أن يسيل من فيه ، فصاح به :

- « هل ترى هذا المصباح ؟ أنت لم تضعه ولم تنره .. لقد صنعه رجال أفضل منك .. رجال يطيعون الله قاموا بصهر الحديد ، وبداخله حبسوا أسطورة النار .. فى كل شارع تجد آثارهم .. فى كل خيط من ثيابك تجدهم ، يدحضون فلسفتكم المفعمة بالقاذورات والفئران .. أنت لم تصنع شيئًا .. أنت تدمر فقط .. »

وهوى بالمصباح على رأس السكرتير ثم استدار الرجال وراءه وصاح :

- « سيوف ! نريد أن نلقن هؤلاء درسًا قبل أن نموت ! »

كان السكرتير ما زال متصلبًا بعد الضربة التى تلقاها ، فلما أفاق تحسس جمجمته وقال بلهجة رسمية آمرة :

- « أنت لاتفهم موقفكم يا مستر (سايم) .. إننى أقبض عليكم باسم القانون !! »

- « أى قانون ؟ »

- « أنا مفتش فى سكوتلانديارد .. »

وأخرج من جيبه بطاقة زرقاء لامعة .. فهتف البروفسور :

- « إذن من نحن ؟! »

- « أنتم أعضاء فى مجلس الفوضويين الأعلى .. لقد رأيتكم هناك .. »

هتف د. (بول) وهو يلقى بسيفه فى الماء :

- « إذن لم يكن هناك قط مايدعى مجلس الفوضيين الأعلى .. هناك فقط رجال شرطة حمقى .. ويبدو أن هؤلاء الشباب لطيفى المعشر يطاردوننا لأنهم يحسبوننا مفجرى ديناميت ..

« العامة والفقراء لايجنون أبدًا .. وأنا من العامة أنا نفسى .. بالتأكيد لم أجن .. »

* * *

الفصل الثانى عشر

البحث عن الرئيس

ركب الأصدقاء السفينة متجهين إلى (دوفر) .. كانت لديهم مئات التفاصيل ليحكوها لبعضهم .. حكى لهم السكرتير كيف جعل رجاله يضعون الأقنعة ، كى يشعر الفوضويون بأنهم منهم .. وحكى (سايم) كيف فروا عبر البلاد .. لكن ظل سؤال واحد لايجدون له جوابًا : ما معنى هذا كله ؟ إذا كانوا جميعًا ضباط شرطة فمن هو الأحد إذن ؟

قال السكرتير :

- « لسوف نعرف حالاً .. فالغد هو موعد اجتماعنا الأسبوعى ، وأرجو أن تغفروا لى أننى لا أنسى مهنة السكرتارية .. »

ومن الميناء ركبوا أربع سيارات أجرة ، برغم أن الدكتور - أكثرهم تفاؤلاً - اقترح أن يركبوا سيارة واحدة .. كانوا غريزيًا يشعرون بحاجة ماسة لأن يكونوا معًا .. قضوا ليلتهم فى فندق قريب من ميدان (لسستر) ، ولم تكن مفاجآت اليوم قد انتهت ؛ لأنهم قابلوا فى الفندق (جوجول) .. جاسوس (سكوتلانديارد) الذى كان يتظاهر بأنه فوضوى بولندى ، وتم التعارف بينهم ..

فى الصباح اتجهت كتيبة الأصدقاء الستة نحو الفندق فى ميدان (لسستر) ، حيث موعد اللقاء الأسبوعى للمجلس .. وقال الدكتور (بول) فى مرح :

- « إن الوضع أفضل .. نحن ستة رجال ذاهبين ليسألوا واحدًا عن حقيقته .. »

فى الشرفة رأوه .. كان أضخم من المعتاد ، وهو جالس يقرأ الجريدة ولا يرفع عينيه .. وبرغم هذا عبروا الميدان فى حذر ، كأن مائة عين تراقبهم .. كانوا قد اختلفوا حول (جوجول) .. هل يدخلون من غيره ،

أم يدخلون به ويفجرون الموقف ؟؟ واستقر الرأى على الأخير .. تساءل السكرتير محتجًا على الفكرة :

ـ « لماذا تهاجمون الأحد بهذا الاندفاع ؟ »

ـ « الإجابة سهلة » ـ قال (سايم) ـ « لأننا نخشاه كثيرًا .. »

أخيرًا دخلوا إلى الشرفة المشمسة، وإلى عالم الأحد .. حياهم باسمًا وقال :

ـ « يسعدنى أن أرى كل هؤلاء مجتمعين .. هل مات القيصر ؟ »

ابتلع السكرتير ريقه وقال :

ـ « كلا يا سيدى .. لم تحدث مذابح .. وقد جئنا لنعرف معنى هذا كله .. من أنت ؟ ماذا أنت ؟ لماذا أحضرتنا هنا ؟ هل تعرف من نحن حقيقة ؟ هل أنت رجل محدود الذكاء يتظاهر بالدهاء ، أم أنت عبقرى يدعى البلاهة ؟ قل لنا .. »

قال الأحد فى هدوء :

ـ « تريدون معرفة كل شىء وأى شىء .. سأحاول أن أجيب .. أما من أنتم ، فأنتم مجموعة من الحمير .. »

ـ « حسن .. وما أنت ؟ »

نهض الرجل فبدا طوله يجاوز ما هو مقبول أو معلوم ، وقال :

تريدون معرفة ما أنا ؟ (بول) .. أنت رجل علم مثقف .. يمكنك أن تبحث فى كل شىء .. (سايم) .. أنت شاعر .. لكنك ستفهم كل شىء عن هذه الشجرة وعن الغيوم فوقنا ، قبل أن تفهم من أنا .. ستفهم البحر بينما أظل أنا لغزًا .. منذ بدء العالم والناس يطاردوننى كالذئب .. كل الأديان وكل الفلاسفة وكل دور العبادة تحاول .. لكن لم يفلح أحد .. »

وقبل أن يدرك الرجال ما يحدث ، تلوى الرجل فوق سور الشرفة كأنه (أورانج أوتان) عملاق .. ثم وثب ، قبل أن يهوى تمسك بقضيب أفقى ، وقال :

ـ « سأخبركم من أنا .. أنا الرجل فى الغرفة المظلمة الذى جعلكم جميعًا رجال شرطة ! »

ثم هوى لأسفل نحو حجارة الطريق ، وراح يتواثب مبتعدًا ككرة من مطاط ، حتى وصل إلى (الهمبرا) فاستوقف سيارة أجرة ، ووثب داخلها .. ظل الرجال متصلبين كأنما صفعهم البرق ، ثم استعاد (سايم) روحه العملية ، فتشبث بسور الشرفة ووثب لأسفل ونادى عربة أجرة مارة ..

وسرعان ما كان هو والطبيب فى عربة تتابع الرئيس ، على حين ركب الأربعة الباقون عربتين أخريين ..

كانت عربة الرئيس تركض بسرعة محمومة ، وبدا أن الحوذى تحت تأثير قوة كاسحة ، إلا أنه أبطأ قليلاً ، فانتشل منه الرئيس السوط ، ووثب إلى مقعد القيادة ، وراح يجلد ظهر الجواد كى يندفع فى جنون عبر شوارع (لندن) ..

استمرت المطاردة ، وشعر الأحد الأبيض يتطاير فى الهواء ، ثم إنه نظر للوراء وتقلص وجهه فى تعبير مريع كأنه طفل عملاق يضحك .. وكور ورقة وقذفها

فى وجه (سايم) .. مد (سايم) يده وفتحها فوجد خطابين قصيرين ، أحدهما موجه لدكتور (بول) يتكون من عبارة واحدة :

ماذا عن (مارتن توبر) الآن ؟ »

أما عن رسالة (سايم) فكانت تقول :

« لا أحد يعترض على تدخل الأرشيدوق أكثر منى .. أعتقد أن الأمر لن يصل لهذا .. لكن لآخر مرة ، أين حذاؤك الواقى من المطر ؟ هذا سيئ خاصة بعد ما قاله لك العم .. »

كان السباق مستمرًا ، لكن المرور كان متوقفًا عند نهاية الطريق لحسن حظهم ، والسبب هو أن عربة الإطفاء كانت مارة .. فى اللحظة التالية وثب الأحد من عربة الأجرة وتمسك بعربة الإطفاء .. ورآه الأصدقاء يتكلم بالإشارة مع رجال الإطفاء المذهولين ..

- « فلنتبع عربة الإطفاء .. من المستحيل أن نفقدها .. »

هنا برز الأحد في مؤخرة عربة الإطفاء ، ولثم يديه معًا ، ثم طوح بورقة مطوية بالضبط لتستقر على صدر المخبر (راتكليف) .. فتحها الرجل فى لهفة فوجد المكتوب :

ـ « اهرب ! لقد افتضح أمر حمالة سروالك ! »

وتلقى (جوجول) ورقة أخرى فتحها فوجد المكتوب :

« أعتقد أن الكلمة يجب أن تكون : وردى »

وثب الأحد من العربة ، وركض متجهًا إلى سور جانبى تسلقه وتوارى خلفه .. كانت هذه بقعة من شمال لندن لا يعرفونها ، وقد ترجل الرجال من عربات الأجرة .. وجرى (سايم) ليتسلق السور خلف الرجل .. ثم توقف .. نظر للرجال وصاح بتردد :

ـ « ماذا لو كان هذا بيت الشيطان العجوز ؟ »

ـ « سيكون هذا أفضل .. سننال منه فى داره .. »

ـ « لكن .. ألا تسمعون معى أغرب الضوضاء ؟ أليست هذه كلابًا تنبح ؟ »



وثب الأحد من العربة ، وركض متجهًا إلى سور جانبى تسلقه وتوارى خلفه .

وفجأة دوى صوت زئير عميق طويل جمد الدم فى عروقهم .. فهز (جوجول) كتفيه وقال :

- « كلاب الأحد لايمكن أن تكون كلابًا عادية .. »

كان (سايم) قد وثب إلى الناحية الأخرى من السور ، لكنه بقى متصلبًا .. وقد تبدلت الضوضاء لتتحول إلى صرخات متعارضة فيها غضب وفيها شكوى .. قال البروفسور :

- « لا بد أن هذا المنزل هو الجحيم ذاته .. »

ووثبوا جميعًا إلى الجانب الآخر ووقفوا متصلبين ، وفجأة هتف الدكتور (بول) ضاحكًا :

- « لحظة يا حمقى !! هذه حديقة الحيوان !! »

هنا جاء أحد الحراس ومعه موظف .. كانا يركضان ممتقعى الوجه ، وسألهم الحارس :

- « ألم يأت من هنا ؟ »

- « من يا سيدى ؟ »

- « الفيل .. الفيل الذى هرب من محبسه ومعه رجل غريب أشيب ضخم كما لم أر رجلاً من قبل .. »

قال (سايم) :

- « نعم .. ها هو ذا !! »

وأشار إلى الجهة الأخرى من الحديقة حيث كان الناس يركضون هلعًا ، ووسطهم فيل عملاق يلوح بخرطومه فى الهواء ، ويصدر صوت بوق مريعًا ترتج له القلوب .. وعلى ظهره جلس الرئيس كأنه سلطان هندى ، مسترخيًا مستريحًا ، ينخسه بشىء حاد فى يده كى يركض ..

ودوى صوت تحطم عال ، وسرعان ما كان الفيل الرمادى يخترق البوابة ليخرج إلى شارع (ألبانى) .. كأنه طراز جديد من الحفلات السريعة .. ركب الأصدقاء سيارة أجرة وراحوا يطاردونه ، لكن الأحد لم ينظر للوراء هذه المرة .. كان الناس فى الشارع يصرخون ويتأملون الموكب ، وخطر لأكثرهم أن هذا إعلان عن سيرك ما .. فى النهاية لحق الأصدقاء بالفيل الواقف وسط الزحام ، ولم يكن الأحد فوق ظهره ..

قال أحد السعاة الواقفين فى اشمئزاز :

ـ « الرجل الذى كان على ظهر الفيل قد دخل معرض (ألبيرت كورت) .. تصور أنه طلب منى العناية بالفيل ، وأعطانى بقشيشًا هذه الورقة .. »

كان المكتوب أعلى الورقة : إلى السيد سكرتير المجلس الأعلى .. أما محتواها فكان :

« حين تجرى الرنجة ميلاً .. دع السكرتير يبتسم ..

وحين تحاول الرنجة أن تطير .. دع السكرتير يهلك »

وأشار (سايم) إلى السكرتير كى ينظر إلى السماء .. إلى حيث كان المنطاد المربوط الذى يعرضه المعرض للزوار .. الآن لم يعد مربوطًا .. كان يرتفع إلى السماء ، واستطاعوا أن يروا الأحد داخله .. يبتعد ويبتعد ..

وقال (سايم) فى ضيق :

ـ « أنا لم أهزم بعد .. هلموا نقتفى أثر هذا البالون .. »

* * *

الفصل الثالث عشر

الستة الفلاسفة

راح الستة الفلاسفة يركضون وراء المنطاد ، وهم ينظرون إلى السماء .. لقد قرروا ألا يركبوا سيارات أجرة ، لأن هذا يقيدهم لو حلق المنطاد فوق غابات أو طرق غير ممهدة .. كانوا مرهقين لكن مصممين ، وقد تحول كل منهم إلى شبح يصعب ألا تعتبره متشردًا .. وشهدت هذه الأحراش النهاية المأساوية للبذلة التى دخل بها (سايم) حديقة الزعفران .. وتهشمت قبعته الأنيقة ..

قال البروفسور :

ـ أتمنى لو تنفجر هذه البالونة القبيحة .. »

قال د. (بول) :

ـ « لا .. لا أتمنى هذا .. ربما تؤذى الصبى العجوز .. فأنا لا أتمنى أن يؤذى »

- « ماذا ؟ هل تصدق هذا الهراء عن كونه الرجل فى الغرفة المظلمة ؟ الأحد يمكنه أن يزعم أنه كان أى شخص .. »

- « لا أدرى إن كنت أصدق هذا أم لا .. لكنى لا أريد لمنطاده أن ينفجر .. ربما لأنه رائع كأنه منطاد هو الآخر .. »

قال د. (بول) فى قنوط :

- « لا أصدق حرفًا عن كونه ذات الرجل الذى أعطانا بطاقاتنا الزرقاء .. يجعل هذا كل شىء هراء .. لكنى مازلت أشعرٍ بالعطف على هذا الأحد البائس .. كأنه طفل مكتنز .. حقًا لا أستطيع شرح سبب عطفى عليه .. هل أقول إننى أعطف عليه لأنه .. لأنه بدين ؟!! »

- « لا أفهم .. »

- « نعم .. نعم .. لأنه كالمنطاد .. نحن دومًا نفكر فى البدينين باعتبارهم ثقيلى الحركة .. لكن هذا الرجل قادر على أن يرقص الباليه .. إن القوة الحقيقية تأتى من الحيوية .. كما يثب الفيل فى الهواء كالجندب .. »

نظر (سايم) للسماء وقال :

- « فيلنا بالفعل يحلق فى السماء كالجندب .. »

- « وهذا هو ما يحملنى على القول إننى أحب الأحد .. لأنه وثاب .. »

ساد صمت ، ثم قال السكرتير بصوت منهك :

- « أنتم لا تعرفون الأحد جيدًا ، وربما لأنكم خير منى ولا تعرفون الجحيم .. كنت معه من البداية ، والرجل الذى يجلس فى الظلام اختارنى من البداية لأن لى كل ملامح المتآمرين .. لأن ابتسامتى عرجاء ، وعينى كئيبتان حتى حين أضحك .. ثمة شىء ما فىَّ راق لكل هؤلاء الفوضويين .. وحين قابلت الأحد وجدته موحيًا بالحزن .. كان يدخن وحده فى غرفة معتمة الإضاءة ، كئيبة أكثر من تلك الظلمة الداجية التى يجلس فيها رئيسكم .. كان جبلاً آدميًا يصغى لى دون حراك أو كلمة واحدة .. رحت أقدم له أوراق اعتمادى وراح يصغى لى طويلاً ، ثم راح يهتز .. حسبته يهتز من فعل مرض غامض .. يهتز كأنما هو نوع من الهلام المقزز .. ذكرنى بتلك الكتل

البروتوبلازمية التى تعيش فى أعماق البحر .. كأنه الصورة النهائية للمادة .. وخطر لى أنه من الممكن لكائن كهذا أن يتعذب ، ثم فهمت أن الكائن المريع يضحك .. ويضحك على أنا .. وتريدون أن أغفر له هذا ؟ ليس هينًا أن يسخر منك شىء أحط وأقوى منك .. »

هنا جاء صوت المفتش (راتكليف) الواضح :

ـ « أنتم تعقدون الأمور .. إن الأحد غريب حقًا لكنه ليس من عجائب سيرك (بارنوم) كما تزعمون .. لقد تكلم معى بشكل عادى مهذب .. لكن ما أثار رعبى هو أن غرفته منسقة .. ثيابه منسقة .. لكنه شارد الذهن .. أحيانًا ينسى أنك موجود .. أحيانًا تعمى عيناه الذكيتان .. وشرود الذهن مخيف لدى الأشرار ، لأننا لانستطيع التفكير فى شرير يحلم .. لانستطيع التفكير فى شرير غير متوقد الذهن .. هذا هو ما يمتحن أعصابك .. أن يجتمع التجريد العقلى مع الشر والقسوة .. الحيوانات نفسها لايشرد ذهنها .. إنها تتركك أو تهاجمك .. كيف تحب أن تمضى عشر ساعات مع نمر شارد الذهن ؟ »

سأل (سايم) :

ـ « وما رأيك فى الأحد يا (جوجول) ؟ »

قال (جوجول) :

ـ « لا يمثل لى التفكير فى الأحد أكثر من النظر إلى الشمس عند الظهيرة .. »

ـ « هذه وجهة نظر .. وماذا عنك يا بروفسور ؟ قل لنا رأيك فى الأحد .. »

بعد صمت طال ، قال البروفسور :

ـ « شىء لا أستطيع التعبير عنه بوضوح .. شىء بالأحرى لا أستطيع التفكير فيه بوضوح .. لقد خطر لى أن وجه الأحد كبير جدًا ، لكنه كذلك مفكك جدًا .. الوجه كبير جدًا بحيث يصعب أن تستوعبه ، والعينان متباعدتان جدًا .. الفم يجب أن تفكر فيه بشكل مستقل .. كل شىء عسير يصعب وصفه ..

« كنت أمشى ذات مرة ليلاً ووجدت مصباحين بينهما شجرة ، فخطر لى أن هذا المشهد يشبه الوجه البشرى ،

ثم دنوت منه أكثر فرأيت أنه لا وجه هنالك .. لقد فر الوجه منى وتناثر يمينًا ويسارًا .. صار شجرة ومصباحين ..

« وقد خطر لى وقتها أنه لا يوجد شىء يدعى الوجه .. لربما لو دققت النظر فى وجهك يا (سايم) لتفكك إلى عناصره الأساسية ولم يعد هناك .. لم أعد أومن بالأشياء المادية .. »

قال (سايم) وهو ينظر لأعلى وعيناه على المنطاد :

ـ « هل لاحظتم ما فى هذا من غرابة ؟ كل واحد منكم رأى بشكل مختلف .. لكن كل واحد وجد شيئًا واحدًا يشبه بالكون ذاته .. (بول) يجده كالأرض فى الربيع .. (جوجول) يراه كشمس الظهيرة .. السكرتير يشعر بأنه بروتوبلازم .. المفتش وجده يمثل شرود ذهن الأحراش .. البروفسور قال إنه يتغير كمشهد طبيعى .. أما الأغرب فهو أننى أرى الأحد كأنه الأرض كلها ..

« لم أر الأحد إلا من ظهره ، وحين رأيت ظهره عرفت أنه أشر رجل على ظهر الأرض .. رأسه يوشك ألا يكون

آدميًا .. خطر لى أن هذا ليس بشرًا بل هو وحش يرتدى ثياب إنسان .. ثم رأيت وجهه فأثار هلعى .. ليس لأنه جميل ولا لأنه شرير ، بل لأننى شعرت أنه قناع لا أكثر .. وبأن ظهره هو وجه بلا عينين يرمقنى طيلة الوقت .. كان هذا مريعًا .. كان هذا أشنع ما شعرت به فى حياتى ..

« هل تعرفون سر العالم ؟ السر هو أننا لم نره إلا من ظهره .. هذه ليست شجرة بل هى ظهر شجرة .. هذه ليست سحابة بل خلفية سحابة .. كل شىء يدارى وجهه ، فقط لو أننا تمكنا من الدوران حوله .. »

ثم صاح صائح أن المنطاد يهبط .. رأوا المنطاد يتصلب فى السماء ، ثم يهوى ببطء كشمس غاربة ، وراء حزام الأشجار .. هتف (جوجول) :

ـ « لابد أنه مات »

غمغم السكرتير :

ـ « مستحيل .. إنه لا يموت بسهولة .. سنجده يركض فى المرج ، راكلاً بساقيه فى مرح كالمهر .. ربما بحوافره كذلك مثل (بان) إله المراعى عند اليونان .. »

قال (سايم) :

- « إنه هناك .. فلنظفر به .. لو اتضح لنا أنه خدعنا كالعادة ومات .. أوه .. سيكون هذا مؤذيًا .. »

هنا أدرك الرجال أنهم ليسوا وحدهم هنا .. كان هناك رجل فارع القامة ، يمشى نحوهم ، منحنيًا على شىء غريب أقرب إلى الصولجان .. يلبس ثيابًا أنيقة لكنها عتيقة الطراز ، لونها ظل ما بين البنفسجى والرمادى .. وكان شعرّه أبيض شائبًا يعطى الانطباع الأولى بأنه رش مسحوق .. قال لهم :

- « ياسادة .. إن سيدى يبلغكم أن عرباته تنتظركم خارج هذه الأحراش .. »

- « ومن هو سيدك ؟ »

- « قال لى إنكم ستعرفونه .. »

نظر له (سايم) مرارًا فلم ير ما يريب فى مظهره ، عدا أن وجهه كان له ذات لون السماء ، وسترته لها ذات انعكاس ألوان الشجر .. مشى الرجال خلفه ما بين الأشجار ، فإذا به يتجه إلى طريق له لون أبيض ، يقف به صف من العربات .. كانت ست عربات ، واحدة

لكل واحد من هذه المجموعة البائسة .. وجوار كل عربة كان خادم متأنق بادى الكبرياء ، ليس له سمت الخدم وإنما سمت سفراء الملوك ..

تساءل (بول) :

- «مامعنى هذا ؟ هل هى مزحة أخرى من الأحد ؟»

قال (سايم) وهو يغطس وسط الوسائد فى عربته :

- «لا أدرى .. لكن لو كانت مزحة فهى متقنة حقًا .. »

وكان المغامرون الخمسة قد اعتادوا أقسى الظروف وأشد ألوان المعاناة ، لكنهم لم يتوقعوا أن يجدوا فجأة كل هذا الترف والراحة .. ووجد (سايم) نفسه وحيدًا فى الغرفة وسط ظلال الأشجار ، فاسترخى تمامًا .. لم يعد هو المكلف بالقيادة بل هناك من يتولى الأمر ، ومن ثم يمكنه أن يسترخى تمامًا ..

لقد خرجت العربات من نطاق الأشجار ، ثم بدأت تتسلق هضبة تحيط بها الأشجار على الجانبين ، لكنها أشجار أكثر أناقة من أن تكون غابة .. أشجار ظل مصطفة

بغاية كما ينبغى لأشجار الظل أن تكون .. وخطر له كم هو جميل أن يتسلق الصبية هذه الغصون ويلهوا عليها ..

ثم لاح البيت من بعيد ، صغيرًا لكنه أنيق فى ضوء الشمس التى بدأت تغرب ..

فيما بعد قارن الأصدقاء ذكرياتهم عن المكان ، واختلفوا كثيرًا ، لكنهم أجمعوا على أنه ذكرهم بطفولتهم الأولى .. ربما هى الأشجار وربما هو شكل النوافذ ، لكن فيما بعد أكد كل واحد منهم أنه يذكر هذا المكان قبل أن يذكر أمه ..

خرج لهم رجل وقور أشيب ، وقال لـ (سايم) :

ـ « ستقدم لكم المرطبات فى غرفكم »

وجد (سايم) نفسه يمشى كالمنوم مغناطيسيًا وراء هذا المرافق المهيب ، وارتقى درجات السلم المصنوع من خشب البلوط .. دخل غرفة واسعة مريحة فى ركنها مرآة .. اتجه هناك كى يسوى شعره وربطة عنقه ، لكنه أصيب بذعر من هيئته الشنيعة بالدم الذى يسيل

من وجهه حيث خدشته الغصون ، وشعره منتصب كالعشب الأصفر ، وثيابه ممزقة كلها .. هنا دخل الغرفة خادم مهذب فى ثياب زرقاء ، وقال :

ـ « قد أعددت ثيابك يا سيدى .. »

ـ « ثياب ؟ ليست عندى ثياب إلا هذه .. »

وضم طرفى سترته ودار حول نفسه متهكمًا كما تفعل راقصات الباليه .. فقال الخادم :

ـ « يقول سيدى إن هناك حفلاً راقصًا عظيمًا الليلة .. وهو يرغب فى أن ترتدى هذه الثياب وتتناول وجبة من (الفيزان) البارد لأن ثمة وقتًا قبل العشاء .. »

ـ « كل هذا رائع ، لكنى لا أشتهى شيئًا من هذا .. كل ما أريد معرفته هو أين أنا وما معنى هذا كله ؟ وأين تلك الثياب المعدة لى ؟ »

مد الخادم يده ، وقدم لـ (سايم) رداء طويلاً أخضر اللون على صدره رسم كبير للشمس ، تخرج منها نجوم وأهلة ، وقال فى لطف :

- « ستلبس مثل يوم الخميس ! »

- « ألبس مثل يوم الخميس ؟ »

قالها (سايم) فى تأمل ، فقال الخادم فى حماسة :

- « إنه ثوب دافئ يصل حتى ذقنك .. »

تنهد (سايم) وقال :

- « حسن .. لا أفهم أى شىء .. لقد اعتدت المغامرات المتعبة ، حتى إن المغامرات المريحة ترهقنى بحق .. لكن ربما كان من حقى أن أسأل لماذا ألبس مثل الخميس ، ولماذا يكون الخميس هو يوم الشمس والقمر ؟ لقد رأيت القمر ذات مرة يوم الثلاثاء .. »

وجلس على مقعد وقال لنفسه :

- « الأمر يزداد تعقيدًا .. من هؤلاء القوم الذين يقدمون (الفيزان) البارد وعباءات طويلة خضراء ؟ »

- « هل أساعدك فى ارتداء ثيابك يا سيدى ؟ »

- « ليكن .. »

وبرغم أن (سايم) لم يحب هذه المراسم السخيفة ،

فإنه شعر براحة وهو يرفل فى الثياب الخضراء والذهبية ، وعرف أن عليه أن يحمل سيفًا ، فأعاد هذا أحلامًا طفولية إلى نفسه ..

وخرج من الغرفة فطوح العباءة على كتفه ، واتخذ سيفه زاوية حادة .. كان الآن كأحد الفرسان الشعراء القدامى ، إذ إن ثياب التنكر هذه لم تكن تخفى الحقائق بل تظهرها ..

★ ★ ★



كان الآن كأحد الفرسان الشعراء القدامى ، إذ إن ثياب التنكر هذه لم تكن تخفى الحقائق بل تظهرها ..

الفصل الرابع عشر

الذى يتهم

إذ مشى (سايم) عبر الممر رأى السكرتير يقف فوق درجات سلم هائل .. كان يرتدى عباءة طويلة من الأسود الذى لا نجوم فيه تتدلى من نطاقه حزمة بيضاء .. كأنما يلبس أحد الأثواب الكنسية .. وتذكر (سايم) أن يوم الاثنين فى التوراة ، هو يوم أخرج اللّه النور من الظلام ..

وما أثار دهشة (سايم) هو أن سحنة السكرتير كانت مرتبطة حقًّا بالأبيض والأسود .. بطبيعته الباردة المجنونة التى تجعله يشن حربًا على الفوضويين ، وبرغم هذا يخدع من يراه باعتباره منهم .. ولم يندهش (سايم) لأن عينى الرجل ظلتا صارمتين قاسيتين برغم كل ما يحيط بهما من غرائب ..

ولو أن (سايم) رأى نفسه الآن لخطر له أن الثياب أظهرت حقيقته ولاشىء سواها .. فلو كان السكرتير

هو الفيلسوف الذى يعشق النور الأولى عديم الشكل ، فإن (سايم) كان هو الشاعر الذى يعشق الأشكال الخاصة للنور .. أن يراه شموسًا ونجومًا وأهلة .. الفلاسفة يحبون ما ليس محددًا بينما الشعراء يحبون ما هو محدد ..

لمحا فى هذه اللحظة (راتكليف)، وكان فى عباءة خضراء ربيعية تبدو كأنما هى غابة من الأشجار ، كان وجهه السمح الودود يتمشى تمامًا مع هذا الثوب ..

اقتيدوا إلى مخرج واسع يقود إلى حديقة إنجليزية كبيرة جدًا .. يرقص فيها حشد من القوم بأزياء عديدة الألوان ، على ضوء المشاعل .. وكاد (سايم) يرى كل مظاهر الطبيعة على كل ثوب من هذه الثياب .. رجل يلبس كفيل ، ورجل يلبس كطاحونة .. ورجل يلبس كمنطاد .. بالواقع كان هناك كثيرون يلبسون ثيابًا تذكر (سايم) بما مر به من مغامرات ..

على جانب المكان كانت هناك شرفة خضراء كبيرة .. وبها كانت سبعة مقاعد مصفوفة كالهلال ، تمثل

الأيام السبعة .. وكان (جوجول) والدكتور بالفعل على مقعدين منها ، و (جوجول) يلبس عباءة تنشق من فوق جبهته إلى الجانبين ، لونها أزرق رمادى كالمطر .. بينما كان البروفسور يلبس عباءة رسمت عليها أسماك عديدة وطيور استوائية غريبة ، كأنما تشير لما فى شخصيته من مزيج من الخيالات والشكوك .. أما د. (بول) فكان يلبس عباءة عليها أسماك ووحوش قديمة ملونة بالأحمر والذهبى .. وقد استرخى فى مقعده موحيًا بكل ما فى شخصيته من تفاؤل ..

واحدًا تلو الآخر اقتيد الضيوف إلى مقاعدهم ، فكلما جلس واحد تعالى زئير حماسى من المشاهدين ، كأنما هو استقبال الملوك .. اهتزت المشاعل وقرعت الكئوس وطارت القبعات ذات الريش فى الهواء ..

لكن المقعد الأوسط كان خاليًا .. (سايم) على يمينه والسكرتير على يساره .. نظر الأخير عبر المقعد إلى (سايم) وزم شفتيه :

ـ «لسنا واثقين إن كان قد هلك فى الحقل أم لا .. »

ما إن قيلت هذه الكلمات ، حتى لمح (سايم) فى وجوه الواقفين ذعرًا حقيقيًا .. كأن السماء انفتحت خلف رأسه .. ولا يدرى كيف مر الأحد بخفة وصمت بينهم حتى جلس إلى مقعده ..

كان يرتدى الأبيض ، وشعره شعلة بيضاء تحيط بجبهته .. وهنا عاد الرقص بشكل محموم ، وبدا كأنما كل اثنين من الراقصين يرقصان رقصة خاصة متفردة ، تحكى قصة مختلفة .. وأخيرًا بدأ الزحام الكثيف يتفرق .. بدا كل اثنين يجولان فى ممرات الحديقة ، أو وقف الرجال يدخنون فى آنية كبيرة غريبة ..

فوق كل هذا راحت نار خلوية عملاقة تتوهج فى سلة معدنية ، فأضاءت المكان على بعد أميال ، وبدا أنها تضفى جوًا من الألفة على المكان ، وتبعث الدفء فى قلب الليل ذاته .. وسرعان ما لم يبق فى الحديقة إلا عشرة متسكعين .. سرعان ما صاروا أربعة .. وبعد قليل توارى آخر ضيف مع رفاقه فى داخل المنزل ، وهمدت النار وازدادت النجوم تألقًا ..

وبقى الرجال السبعة وحدهم كسبعة تماثيل عملاقة فوق عروشها .. لم ينبس أحدهم ببنت شفة .. ظلوا لدقائق طويلة يصغون لصوت حشرات الليل ، ثم فى النهاية تكلم الأحد .. تكلم بصوت رتيب غريب ، كأنما يستكمل محادثة بدأها من قبل :

ـ « سنأكل فيما بعد .. فلنبق معًا قليلاً نحن الذين أحببنا بعضنا بشكل محزن .. وتحاربنا طويلاً .. كأننا تقاتلنا قرونا من الحروب البطولية .. إلياذة وراءها إلياذة .. وظللتم أنتم إخوان سلاح طيلة الوقت .. كأن هذا من دهور حين جلست فى مكتبى المظلم وأصدرت لكم أوامرى ، وطلبت منكم أقصى درجات الفضيلة والتضحية .. وفى الصباح أنكرت أننى أنا وأنكرت أننى طلبت منكم أى شىء ..

« كنتم رجالاً شرفاء وقاومتم ببراعة .. تحول العالم كله إلى عجلة تعذيب تحاول انتزاع الشرف منكم ، لكنكم تمسكتم به .. »

ساد الصمت فى الحديقة ، ثم إن السكرتير الذى لا يرضى بشىء ، استدار للأحد وسأله بخشونة :

- « من وما أنت ؟ »

- « أنا الأحد .. أنا (الساباث)(*) .. »

نهض السكرتير وضم عباءته وقال :

- « مازلت لا أفهم .. لو كنت أنت الرجل فى الغرفة المظلمة ، فلماذا اتخذت صورة الأحد الذى يكره الشمس ذاتها ؟ لو كنت أنت من البداية صديقنا فلماذا صرت ألد أعدائنا ؟ لقد بكينا وهربنا هلعًا .. »

استدار الأحد بوجهه الهائل نحو (سايم) كأنما يوجه له سؤالا ، فقال هذا :

- « لا .. لا أشعر بهذا الغضب .. لقد ظفرنا بمغامرة طيبة ، وإن روحى لتشعر بالسلام الذى تشعر به هذه الأشجار ، لكنى أريد أن أعرف .. روحى تريد أن تعرف .. »

قال البروفسور :

- « أما أنا فلست راضيًا .. لقد كدت أهلك مرارًا .. »

(*) الساباث أو السبت عند اليهود سابع أيام الأسبوع ويوم الراحة ، بينما هو عند المسيحيين الأحد وبداية الأسبوع ..

وقال (جوجول) ببساطة طفل :

- « ليتنى أفهم لماذا تعذبت كل هذا العذاب .. »

نظر الأحد إلى بعيد ، ثم قال :

- « قد سمعت شكاواكم بالترتيب .. ويبدو أن هناك واحدًا آخر قادمًا ليشكو بدوره .. »

كانت النيران تحتضر فى موقدها ، لكنها أرسلت شعاعًا أصفر واهنًا ، وعلى ضوئه رأوا من بين الأشجار رجلاً مدثرًا بالأسود قادمًا من بعيد ، وحين دنا أكثر من مجلس السبعة ورفع رأسه ، أدرك (سايم) فى ذهول أن هذا وجه صديقه القديم (جريجورى) ، بشعره الأحمر وابتسامته المهينة ..

- « (جريجورى) !! » ـ قال (سايم) وهو ينهض من مقعده ـ « هذا هو الفوضوى الحقيقى فعلاً !! »

قال (جريجورى) فى رباطة جأش غير عادية :

- « نعم .. أنا هو الفوضوى الحقيقى فعلاً !! »

ونظر حوله وهتف :

ـ « أنا مدمر .. سأدمر الكون نفسه لو استطعت .. »

قال (سايم) فى رهبة :

ـ « يا أكثر الرجال تعاسة .. حاول أن تكون سعيدًا .. إن شعرك أحمر كشعر أختك »

ـ « شعرى الأحمر هو نار ستحرق العالم .. قد حسبت أننى بلغت النهاية فى كراهية كل شىء ، ثم أدركت أننى لا أكره شيئًا مثلما أكرهك أنت ! »

قال (سايم) فى حزن :

ـ « أنا لم أكرهك قط .. »

زأر (جريجورى) صائحًا :

ـ « أنت لم تكره أحدًا لأنك لم تعش ! أنا أعرفكم معشر القوم ، بثيابكم الزرقاء محكمة الأزرار تحشرون فيها أجسادكم البدينة .. أنتم الشرطة ! أنتم القانون ! لكن ألا ينتمى كل امرئ حى أن يحطمكم ويتحرر

من قواعدكم السخيفة ؟ نحن الثوار نتحدث عن تلك الجريمة وتلك من جرائم الحكومة .. هراء ! الجريمة الكبرى للحكومات هى أنها تحكم !! الخطأ الذى لا يغتفر للقوة هو أنها قوة .. أنا لا أشتمكم لأنكم قساة بل أشتمكم لأنكم فى أمان ! أنتم تتظاهرون بأنكم سبعة ملائكة ، ولم تواجهوا أية مشاكل أو مخاطر .. فقط سأسامحكم لو عرفت أن واحدًا منكم فقط تعذب كما تعذبت أنا ! »

وثب (سايم) واقفا يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدمه .. وصاح :

ـ « أرى كل شىء .. لماذا يحارب كل شىء على ظهر الأرض كل شىء آخر ؟ لماذا يحارب كل شىء صغير على ظهر الأرض العالم بأسره ؟ فقط بالألم والدموع يمكننا أن نظفر بالحق ، فى أن نقول لهذا الرجل الماثل أمامكم : لقد تعذبنا مثلك .. وهكذا ترتد أكاذيب الشيطانَ إلىِ نحره .. إننى أدفع عنا التهمة .. كلا لم نكن رجالاً سعداء ، ولم نكن آمنين .. لقد تحطمنا مرارًا من قبل .. »

واستدار ليواجه عينى الأحد الذى كان يبتسم ابتسامة غريبة ، وسأله :

- « هل تعذبت حقًا من قبل ؟ »

وإذا بالوجه يتضخم ويتضخم ، حتى ليفوق حجم تمثال (ممنون) .. ثم اصطبغ كل شىء بالسواد .. فقط قبل أن يغوص تمامًا فيه سمع صوتًا مألوفًا يقول عبارة شائعة :

- « هل تستطيع الشرب من الكوب الذى أشرب فيه ؟ »

* * *

فى القصص ، حين يصحو الرجال من الحلم ، فإنهم يجدون أنفسهم فى المكان الذى ناموا فيه .. يتثاءبون وينهضون ..

كان ما حدث لـ (سايم) أكثر غرابة .. إن كان حقًا هناك شىء غير حقيقى فى كل ما مر به ..

برغم أنه سيظل يذكر أنه فقد الوعى أمام الأحد ، لكن ما يغلب على ذاكرته هو أنه كان يمشى فى طريق ريفى هادئ مع صديق غريب الأطوار .. كان هذا الرفيق جزءًا من الدراما الحالية ، وهو الشاعر أحمر

الشعر (جريجورى) .. كانا يتناقشان فى موضوع ما تافه ، حين شعر (سايم) بأن جسده تتملكه خفة غير مفهومة وثمة نوع من الشفافية البلورية الغريبة فى ذهنه .. بعدها لا يذكر شيئًا ..

كان الفجر دانيًا بألوان وديعة حنون ، كأنما الطبيعة جربت أولاً الرسم باللون الأصفر ثم حاولت بعدها الرسم باللون الوردى ..

هب نسيم نظيف عذب كأنما لم يأت من السماء .. بل كأنما جاء من بوابة فى السماء .. وانتابته الدهشة حين رأى فى كل صوب من حوله تلك المبانى الحمراء المميزة لحديقة الزعفران .. مشى بالسليقة فى طريق أبيض تتواثب عليه الطيور وتغرد ، حتى وجد نفسه خارج سور الحديقة ..

هناك رأى أخت (جريجورى) .. الفتاة ذات الشعر الأحمر .. تقتطف زهور الليلاك قبل الإفطار ، بكل وقار الأنثى اللاشعورى .

جلبيرت كيث تشسترتون

(1908)

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

الرجل الذى كان الخميس

من العسير تصنيف قصة تشسترتون الشهيرة (الرجل الذى كان الخميس) . هناك من قرءوها كقصة بوليسية مفعمة بالغموض والتشويق ، وكانوا محقين فى ذلك . وهناك من قرءوها كرواية فلسفية تناقش مذهب الفوضوية وتدحضه ، ولم يجانبهم الصواب فى ذلك . وهناك من وجدوا فيها خلفية جدلية شديدة التعقيد مفعمة بالرموز ، وهم على الأرجح محقون .

(تشسترتون) كاتب مثير للجدل ، لكنه -كذلك- ممتع بحق ، ولسوف ترى الرأى ذاته بعد قراءة هذه الرواية الشائقة .

40

ـــه

الثمن فى مصر ٢٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم

الجزيرة الغامضة

